الادب العربي وتاريخه

في

العصر الجاهلي

لطلبة دار العلوم

وطلبة كلية اللغة العربية بالجامعة الازهريه

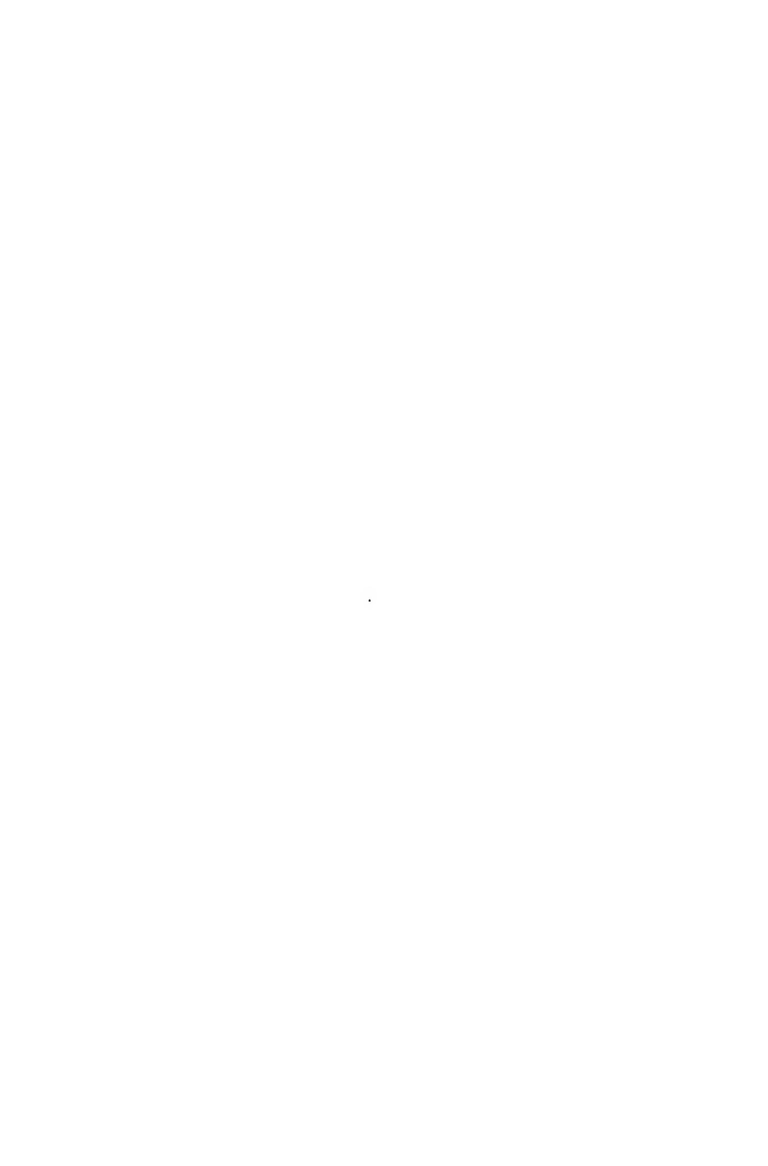
تأليف

الاستاذ محمد هاشم عطيه

المدرس بدار العلوم العليا

١٣٥١هـ — ١٩٣٢م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ





وصلى الله على مولانا وسيدنا محمد وآله

تمهيد

لعل أول ما يجمل بنا قبل الأخذ فيما نحن بسبيله من دراسة الأدب فى هذا العصر الجاهلى أن نلم بشرح المعنى المقصود من كلمة الأدب نبين فيه الوقت الذى عسى أن تكون نشأت فيه هذه اللفظة فى اللغة العربية والأحوال التى تدرجت بعد ذلك عليها وعلى أى شىء كان يطلقها السالف من العلماء حتى صارت إلى ما يتعارف عليه أهل العلم فى هذا العصر من اطلاقها على ذلك الجمال المعنوى الذى يستودعه الشاعر أو الكاتب ما يؤثر عنهما من المنظوم أو المنثور، ثم نعود بمثل هذا البيان إلى العصر الجاهلى ومعنى الجاهلية وما اتصل بذلك من آثار البحث فى القديم والحديث مما يصح أن يكون بعضه حتماً وبعضه إسرافا باطلا لنجعل ذلك وسيلة موصلة لادخال روح الطمأنينة على عقول المتعلمين فيما سنورده عليهم من مباحث هذا العلم ولنفسح أمامهم السبيل لمناهج البحث الخالص من قيود التقليد الأدبي العقيم

نقول والأدب عندهم الظرف وحسن التناول ويقولون إنه مأخوذ من الأدْب بمعنى الدعاء لانه أى الأدَب يدعو صاحبه الى المحامد ولا يدل ذلك على شىء أكثر من أن كلمة الأدْب بمعنى الدعاء كانت أسبق إلى الوجود من الأدب الذى هو الظرف وماهو داخل فى معناه من حلاوة الطبع ورقة الحاشية وسلامة الذوق

وقد يصعب على الباحثين أن يجدوا السبيل إلى تحديد الوقت الذى نشأت فيه الكلمة بنصها أو مادتها فى اللسان العربي غير أنه يظن أن من أقدم الكلام الذى وردت فيه هذه الكلمة بنصها ومادتها ما كان من حديث عتبة بن ربيعة أبي هند أم معاوية عن أبي سفيان بن حرب حين خطبها بعد الفاكه ابن المغيرة زوجها الأول وكانت شرطت على أبيها ألا يزوجها من أحد حتى يعرضه عليها ويصفه من غير أن يسميه لها فجاء فيما حدثها به عن أبي سفيان على ما رواه أبو على القالى قوله « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وكان مما ردت به علي أبيها قولها « وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى » ومعلوم أن ذلك كان قبيل ظهور الاسلام بزمن يسير ثم جاء الاسلام وأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث « أدبنى ربي فاحسن تأديبى » ثم تتابع الناس يذكرون التأديب ويذكرون الأدب فى الحديث والخطب وفى المقامات المختلفة وعند الحاجة ولا سبيل الى استقصاء ذلك ولا طائل فيه غير أنهم إلى ذلك الوقت لم يخرجوا فى استعمال هذه المادة من التأديب والأدب عن معنى تهذيب النفوس وتحلية الطبائع بفضائل الأخلاق وبقى ذلك أخريات العصر الأموى وأوائل الدولة العباسية حين أشخص الخلفاء والولاة الأئمة من الرواة والعلماء لتأديب أولادهم وسموهم بالمؤدبين فأضيف الى مفهومها من ذلك الوقت تعليم الأخبار ورواية الشعر والتبصير بأصول السنن وتأويل القرآن ؛ ثم استحدثت العلوم وترجمت الكتب ونقلت آثار الأمم السابقة إلى العربية فى عصر التدوين أيام العباسيين فأخذت كلمة الأدب تنحرف عن هذا المعنى بعينه واستعملت حينئذ فيما أنتجته قرائح المتكلمين بهذه اللغة من مأثور الشعر والنثر والحكمة والمثل ، ووضعت فى ذلك الوقت كتب استطاع الناس أن يسموها كتب الأدب ثم أضيف إليها علوم لسانية أخرى كالنحو والتصريف والعروض وأصول البلاغة على أنها داخلة فى موضوعها حيناً

وخارجة عنه حينا آخر حتى كان القرن الماضي وأحدث المستشرقون علم تاريخ الأدب على هذا النحو من البحث وفى تلك الصورة من التبويب والنقد فاستقلت هذه الكلمة حينئذ بمعنى المأثور من الشعر والنثر وأصبح النحوى لايستطيع أن يسمى نفسه أديباً ولا العالم بأصول البلاغة وأوزان العروض وان كان لابد للأديب فى ثقافته العامة من معرفة هذه العلوم وغيرها أيضا ليكون آخذاً من كل فن بطرف كما يقولون . وأما كلمة الأديب فلم نعثر على نص صحيح قبل الاسلام وقبل أمثال مزاحم العقيلى وسالم بن وابصة الاسدى وهما إسلاميان تكون قد وردت فيه هذه الكلمة . ذكر صاحب الحماسة فيما رواه لسالم بن وابصة هذا من قصيدته التى أول المختار منها .

احب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقراً

قوله :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديباً ظريفاً عاقلا ماجدا حراً

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذراً

وروى صاحب اللسان فى مادة « أدب » لمزاحم العقيلى قوله من صفة الابل

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل

وهى وان كانت فى الأول صفة للانسان وفى الثانى صفة للبعير فمعناها فى كليهما لايخرج عن التهذيب والرياضة كما تقدم فى تفسير هذه المادة ثم فشت الكلمة بعد ذلك واقتصرت على هذا المعنى حيناً ثم انتقلت الى معنى الأخذ من كل فن بطرف وهى فى هذه الاحوال قد لازمت كلمة الأدب فى أدوار استعمالها التى بيناها فيما سبق

الجاهلية ــ العصر الجاهلي

يطلق المؤرخون لفظ الجاهلية على أحوال العرب منذ كانوا إلى ظهور الاسلام وليس الغرض من الجاهلية النسبة الى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة وإنما الغرض منها السفاهة التي كانت مؤدية الى الهمجية وانتشار الضلالة وعبادة الاوثان والاسراف فى القتل واستباحة الزنا والخمر وانتهاء ذلك كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل .

ويقتصر البحث الأدبي على فترة من ذلك الزمن بدأت قبل الاسلام بنحو قرنين تقريبا وانتهت بظهور الاسلام وهى ما اتفق العلماء على تسميتها بالعصر الجاهلى والمعقول أن فى تحديدهم نهاية هـذا العصر بظهور الاسلام شيئا من التساهل إذ الواقع أن العصر الجاهلى أو على الاقل هذه اللغة الجاهلية بقيت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم زمنا غير قصير متمثلة فى أكثر مظاهرها السابقة حتي انتشرت تعاليم الاسلام بعض الانتشار فى أنحاء الجزيرة وتكامل نزول القرآن كله أو معظمه واتجهت الآداب فى جملتها حينئذ اتجاها اجتماعيا آخر أظهر ما كان فيه تلك الصبغة الخلقية الناشئة عن روح ذلك التشريع الجديد ومسلك هذا الدين الحنيف فيما استحدثه أسلوب القرآن وأخذ به الناس من أحكام الاسلام

والحق أن عصور الأدب يتدخل بعضها فى بعض فتظل طوابع عصر بادية على أعراض اللغة فى أوائل العصر الذى يليه حتي لقد ترى الآداب زاهرة واللغة راقية فى عصر تنحدر فيه الاحوال السياسية والاجتماعية إلى التأخر وانما كان الذى بقى فى اللغة من الحياة نتيجة لعصر سياسى قوى سبق ذلك الانحطاط اذ ليس الأدب عرضا من عروض التجارة وليست اللغة كائناً من الجمادات يمكن أن يأتي عليها الفناء جملة أو تؤثر فيها الحوادث

والانقلابات دفعة واحدة وانما يكون تأثرها بهذه الحوادث والانقلابات مرتهنا بالزمن الذى تتحلل فيه هذه الطباع الراسخة من قيودها وتنسلخ من صفات ومعالم كانت لها وتتحول اللغة فى خلال ذلك متدرجة الى زى العصر الجديد من ضعة وانحلال أو حياة وارتقاء وان ذلك بعينه هو سبيل الأحوال السياسية والاجتماعية لشعب من الشعوب فان الانقلابات السياسية والحكومات الطارئة مع افتراض ما يسبقها من التمهيد والاستعداد لوقوعها لن تستطيع طفرة أن تمحو التربية السياسية السابقة وأن تزيل بوثبة واحدة هذه الشارات الاجتماعية الا بعد العلاج الطويل والزمن الكفيل بذلك التحول والانتقال وقد يكون من الخطر المحتوم على الحكومة الجديدة ذاتها أن تحاول فجأة معاندة الطبيعة والخروج على السنن الكونية بنقل الشعب أو الأمة من حال امتزجت بطبائعها واختلطت بقواعد الحياة فيها الى حال جديدة يمكن أن تختلف فى كل شيء أو فى أكثر الاشياء من المقومات السياسية والاجتماعية عن سابقتها واذن يمكن أن تقول ان ذلك العصر الجاهلى أو تلك اللغة الجاهلية بقيت فترة غير قصيرة كما كانت قبيل الاسلام تعيش بين مناظر البرية وآفاق الصحراء وتحكى آثار النزاع والافتخار بالعصبية والمباهاة بالأحساب والأنساب الى أن طوى الاسلام ذلك البساط بما عليه من التناحر وسفك الدماء وأقبل الناس ينامون فى حراسة السلام اخوانا فى دين الله ، وهنا ينبغى أن نوجز البحث فى شأن هذه اللغة التى اعتبر عصر المتكلمين بها من الجاهليين تمهيداً وتوطئة صحيحة لظهور عصر جديد كان حدوثه أعظم انقلاب تاريخى شهدته الجزيرة العربية وهو عصر الأسلام . ولا يستغرق بنا البحث أصل هذه اللغة وتنقلها على القدم فى العرب البائدة من عاد وثمود وفى العرب المتعربة من أبناء يعرب بن قحطان ولا فيمن جاء بعد هؤلاء من المستعربين من ولد اسماعيل فأننا

سنعود إلى ذلك بتفصيل أو فى عند الكلام على أصل العرب ونشأة اللغة العربية ونوجز الكلام هنا فى هذه اللغة التى نزل بها الكتاب وهى لغة الأدب والشعر فى ذلك العصر الجاهلى أو هى لغة قريش ولغة سائر الشعوب العربية فى ذلك الوقت كافة . نقول كانت قريش فى مكة وهى حاضرة العرب وطبيعى أن يكون سكان الأمصار أدنى الى منازع المدنية من غيرهم من أهل البدو ومن سكان الريف من القرى وأن يكونوا أيضا ألطف أذهانا وأرق حاشية من هؤلاء وهؤلاء . وأنهم لهذا ولما خصهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد قوى لاصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم فى مواسم الحج وفى هذه الاسواق الأدبية المطيفة بمكة حتى عذب أسلوبهم ورقت حواشى لغتهم وكانوا أهل بيت تعظمه العرب وتحج اليه وتقيم فيه بين أظهرهم الأيام الطوال وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت والحكومة بين العرب مع ما كانوا فيه من بسطة الغنى وثروة التجارة وقد أدى ذلك الى تظاهر هذه الاسباب القوية لسيادة قريش التى بسطتها على العرب قبل الاسلام بعدة قرون وكان طبيعيا أن تنقل هذه العذوبة القرشية إلى ألسنة القبائل المختلفة بحكم ما فى الانسان من الميل إلى تقليد الاكمل ونزوعه إلى التقرب من مظاهر الحضارة وكانت تجارة قريش فى بلاد اليمن والشام وغيرها وأذعان أهل هذه البلاد لما انبسط من نفوذ قريش ولما قوى من سيادتها قد دعا أيضا إلى تسرب هذا الاسلوب المهذب إلى تلك القبائل اليمنية بعد اندثار ملكهم وبعد ماعظم من أمر قريش وظهر الاسلام والعرب كافة فى وحدة لسانية لايشوبها الا ما كان باقيا من الخلاف فى اللهجات وصور النطق بالكلام . والمقرون والمنكرون يعترفون بوحدة اللغة فى كل أنحاء الجزيرة بعد ظهور الاسلام وقد يكون هذا الرأى من ناحية مبنيا على العجز عن اقامة الدليل على وجود خلاف جوهرى بين لغة

أهل الجنوب من اليمنيين ولغة سكان الشمال من سائر العرب إذ لو كان هناك خلاف جوهرى كما يقال لما استطاع الاسلام عند ظهوره أو فى مدى سنوات قليلة أن ينسخ هذه الرطانه الحميرية وينزع تلك الحلوق الغربية ثم يضع مكانها ألسنة جديدة قرشية تتكلم بهذه العربية الفصحى وقد أشرنا إلى فساد ذلك فيما سبق عند الكلام على تدخل عصور الأدب وإذا لا ينبغى أن يحمل قول أبي عمرو[1] بن العلاء (ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) إلا على واحدة من اثنتين الأولى أن يكون قصد إلى تلك الاشباح الجافية المختلفة فى بقايا لغات اليمن القديمة وأنها من ذلك السبيل تختلف عن هذه العذوبة والرقة فى أسلوب قريش وفى لغة قريش والثانية أن يكون أراد ذلك الاختلاف فى اللهجات وأنه كان فى عربية اليمن أشد ظهورا وأكثر وجودا لبعد اليمنيين عن الاطافة بقريش ولقلة ما أخذوا من لغتهم وهذا الرأى فى الحالين لا يدفع عنه أبو عمرو ولا يقول بغيره أحد . وأما أن لغة القدماء من اليمن من حميرية وسبئية ومعينية كانت تختلف اختلافا جوهريا عن لغة غيرهم من سكان الجزيرة فقد يكون ذلك صحيحا وقد نذهب نحن إلى أبعد من هذا وهو انه من السهل أن يكون مثل هذا الاختلاف الجوهرى وجد أيضا فى الزمن القديم بين لغات القبائل الشمالية المختلفة قبل هذا الاندماج والتقارب الذى درجت عليه القرون والاجيال . ومن عنده الدليل على أن اللغة العربية كانت واحدة منذ خلق الله العرب إلى ذلك العهد الذى نحن بصدد البحث فيه ؟ وهل كانت اللغة العربية هى وحدها التى استطاعت أن تخرج على قوانين النشوء والارتقاء فتبقى فى مكانها جامدة تتقلب عليها الاجيال وتدرج الامم وهى لسان عاد وثمود ولسان يعرب ولسان اسماعيل ثم لسان قريش من بعد وما قال بذلك أحد

---

(١) أبو عمرو بن العلاء بن عمار أحد القراء السبعة وأحد من أخذت عنهم اللغة توفى فى سنة ١٥٤ هجرية واسمه كنيته على الصحيح

الأدب الجاهلى

اقوال العلماء فيه : لم ينب عن تمييز العلماء من السلف ما أدخل فى هذا الأدب مما ليس منه ولم يفتهم التنبيه على ما كان من تلفيق الرواة ووضع الدساسين من أهل الاهواء وانا نسوق نصوص هذه الأقوال بجملتها ليحق الله الحق ويبطل الباطل فنقول . ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة فى كتاب طبقات الشعراء قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره . قال أبو سلام (وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هووأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان أوما بقى منه) وقال أبو عمرو بن العلاء (ما انتهي اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير (وقال ابن سلام فى موضع آخر (فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الاشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون » وحكى أبو عبد الله أيضا قال أخبرني أبو عبيدة (١) ان ابن دواد بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى فى الجلب والميرة فأتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى القرشى بالولاء من أئمة اللغة وكان راوية ثقة متعصبا على العرب وفى سنة ٢٠٩ هجرية

وكفيناه ضيعته فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الاشعار ويضعها لنا وإذا كلام دون كلام متمم وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ولما توالى ذلك علمنا أنه يفتعل قال وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الاشعار

وذكر صاحب الأغاني فى غير موضع من الجزء الخامس فى كتابه قال المفضل [١] الضبي (قد سلط على الشعر من حماد [٢] ما أفسده فلا يصلح أبدا فقيل له وكيف ذلك أيخطىء فى روايته أم يلحن قال ليته كان ذلك فان أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟) وفى الجزء عينه فى موضع آخر (أقر حماد بحضرة أمير المؤمنين المهدى بما زاده من عنده فى شعر زهير بن أبي سلمى) وأن خلفا [٣] الاحمر وغيره اخترعوا من الشعر مالم يكن موجودا فى الجاهلية وكذبوا على الشعراء وقد تناول هذه المسألة غير واحد من علماء المستشرقين الذين بحثوا فى الأدب العربي فى هذا العصر وكل ما يكتب فيها الآن منقول عن هؤلاء وهو عبارة عن نقد القدماء من العرب كابن سلام وأضرابه وقد نبه على هذه النظرية أيضا الاستاذ ضيف مدرس الأدب بالجامعة القديمة فى كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) وذكر أيضا هذه الاسماء التى يتحلى بذكرها الكتاب أمثال رينان وتين ونيكلسون وغيرهم ممن لهم ابحاث وكتب

(١) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي راوية ثقة وهو أحد أئمة العربية فى الكوفة توفى سنة ١٨٩ هجرية

(٢) هو أبو القاسم حماد بن أبي ليلى الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هجرية

(٣) هو أبو محرز بن حيان أعلم أهل زمانه بالشعر توفى سنة ١٨٠ هجرية

فى هذا الأدب الجاهلى وكلهم يوقرونه ويعرفون أثره العظيم فى نهضتهم الأدبية الحاضرة . وبعد فيمكننا أن نستخلص من جملة هذه الاقوال السابقة أن بعض ماروى لشعراء الجاهلية مدسوس منحول منبه عليه ولكن هذا لايدعو إلى مثل هذه المجازفة المفرطة فى وضع هذا الأدب جملة موضع التشكيك . ورمي أولئك السلف عامة بالتدسيس والغفلة ولم يجترىء على القول بذلك أحد حتى من الشعوبيين المتعصبين على العرب الملحين فى تنقيصهم وافتراء الاباطيل عليهم . لان من الاعتبارات الجديرة بالذكر فى هذا المقام النظر الى تأثير البيئة والوطن الجغرافى ولهذين أثرهما فى تكوين الملكات الأدبية وظهورها فى صورة من سمات العصر التى تكون قد ولدت فيه . والعلماء يقولون إن الانسان رسم تعمله البيئة التى يعيش فيها على صورتها فلو أن أحدا من رواة عصر التدوين تعمد أن يخرج من جلده ويفر من طبعه وجبلته ليلتحق فى تصوره وأسلوبه وأدبه بعصر أولئك الجاهليين على ما بينهما من بعد ومافيهما من اختلاف فيكون كامرىء القيس فى عشقه ونبله وطرفة بن العبد فى اعترافه وأمانيه وزهير فى مدائحه وحكمه وعنترة فى أبائه ونجدته لكان من المعقول أن يخونه خاطره ويفضحه طبعه ولكان طبيعيا أن سلم له من هذه المحاكاة شىء أن تعتل عليه أشياء ولكان فى استطاعة أهل التمييز والانتقاد أن يدركوا فى رفق ومن غير عناء كبير مقدار ما بين المصنوع والمطبوع بمقدار ما بين الكحل فى العينين والكحل على أن عاقلا من الناس تكون له مثل هذه المقدرة لايرضى أن يغض من أدبه ويبخس من ذات نفسه فينسب كل هذا الأنتاج البديع الى غيره ويدعيه لمن هودونه . لايجر بذلك الى نفسه غنيمة ولا يفيد فائدة ولئن كانت غايته من ذلك الصيت والشهرة وان يقال عنه أنه أروى الناس للشعر واحفظ أهل العصر للخبر لقد تكون نسبة هذه الاشعار والاخبار كلها اليه أجلب للشهرة وأطير للذكر وأعود بما يرجو من الفائدة على أن من الجهل فى تأليف

الكذب أن ينحل الراوية شعراً لشاعر بلغة تخالف لغته على فرض التسليم بأن هناك اختلافاً بين لغة العرب الشمالية وبين اللغات اليمنية كان لا يزال باقياً إلى هذه الجاهلية القريبة من ظهور الاسلام وإذا ما كان لعاقل أن يتهم الرواة عامة ويفسق جمهرة العلماء وفيهم أمثال ابن سلام وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن احمد وأبو سعيد الاصمعى ويونس بن حبيب والمفضل الضبي وأبو عبيدة وغير هؤلاء كثيرون من الثقات المتألهين الذين هم نقلة اللغة ورواة الحديث وحفاظ القرآن لأن حماداً أو خلفاً أو غيرهما كذبوا على زهير أو غيره مرة أو مرتين ثم ينتهي من هذا كله إلى القول بضياع العصر الجاهلى واشتمال رمال الصحراء على هذا الجيل من البشر بما كان لهمن أدب وما خلف من أشعار وخطب . ثم يزيد فى الاغراب بالحكم على الذين يريدون هذه الحياة الجاهلية أن يلتمسوها فى القرآن وفى أقوال الشعراء الذين عاشوا فى حضارة الدولة الأموية كجرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم والتسليم بهذا الكلام يعد بلادة فى الفطنة واختبالا فى العقول إذ يكون الوطن الجغرافى على هذا القول وهذا الدين الجديد وذلك الأسلوب البارع فى القرآن وهذه الفصاحة النادرة فى الحديث وانتقال العرب من همجية إلى نظام ومن صحراء إلى ريف مخصب كل هذا قد ظهر أثره وبدا طابعه على كل شيء ما أفلت منه شاعر ولا خطيب إلا هؤلاء الشعراء الذين هم أمويون فى مولدهم جاهليون فى دياناتهم وأشعارهم وجملة آدابهم وما أحوج هذا الكلام إلى برهان وما أخلقه بأن يكون هو المدسوس المكذوب على التاريخ قد تقولون انكم أحيانا لاتجدون فرقاً كبيراً بين شعر الفرزدق أو ابن أبي ربيعة مثلا واشعار امرىء القيس أو طرفة وقد لايكون من الصعب التسليم بهذا القول لأن ذلك فى جملته لايدل على أكثر من توارد الخاطرين على المعنى أو إتفاق الشاعرين فى صورة العبارة أو أنه هو ما جرت به العادة من ولوع المتأخرين بمعارضة

مذاهب المتقدمين واحتذائهم على مثالهم واستهلاكهم لمعانيهم مما يدخل عند نقاد الأدب فى باب السرقات الشعرية ولا يزال ذلك شائعاً معروفا فى كل عصور الأدب حتى فى عصرنا هذا وأنتم ترون معارضة البارودى [1] لأبي نواس فى مدحة الخصيب وشوقى [2] للبحترى فى إيوان كسرى وأبي تمام [3] لبشار فى البائية المشهورة ونصيب [4] للفرزدق عند سليمان بن عبد الملك. على أن فى القرآن الكريم من المعاني المفردة ما يصح أن يكون مثله لشعراء الجاهلية فقول السموءل :

ونـنكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

ومعناه التناهى فى العزة والدلالة على هيبة الجانب واستطالة الجاه شبيه بقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وقول الذبيانى

---

(١) هى رائية أبى نواس المشهورة التى : أولها

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

ومعارضة البارودى هى قوله (أبى الشوق الا أن يحن ضمير) وفيها يقول :

ولو كنت أدركت النواسى لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور

٢ فى سينيته التى أولها اختلاف النهار والليل ينسى يعارض قصيدة البحترى: صنت نفسى عما يدنس نفسى

-٣- التى يقول بشار فى مطلعها:

جفاوده قازو رأومل صاحبه وأزرى به الا يزال يعاتبه

و يعارضها أبو تمام بقوله :

أمن عواتى يوسف وصواحبه فعزما فقد ما أدرك السؤل طالبه

٤ حين أنشد الفرزدق

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

يفتخر فيها بآبائه فقام نصيب بعده فأنشد الخليفة على رويها مدحه الذى منه

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع

فى معنى التهديد بقوة الاحاطة وشدة الاستيلاء والتمكن والتنبيه على تمام العجز عن الفرار والهرب شبيه أيضا بقوله تعالى (يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا)

أقوال علماء المشرقيات فى الأدب الجاهلى

ومع هذا فاننا نورد لكم نبذة من أقوال المحققين من علماء المشرقيات وهم الذين لو وجدوا مطعنا فى هذا الأدب لما وسعهم إلا أن يتسعوا له ولا يلاموا على المبالغة فيه بل أنهم فى الغالب قوم يحبون البحث ويعظمون الحقيقة حيثما تكون وقلما تظفر لغير الغلاة المتعصبين منهم بخطأ يحسب عليهم فى التاريخ نقل صاحب [1] الشهاب وغيره فيما يتعلق بهذه الدعوى عن العلامة نيكلسون أستاذ تاريخ الأدب العربى فى جامعة كمبردج ومؤلف كتاب تاريخ أدب اللغة العربية فى مقدمة كتابه المطبوع سنة ١٩١٤ مانصه « بالنظر لخطورة الشعر العربى لكونه فى جوهره وليه المقصود منه مرآة صادقة لحياة العرب فلا أحسبنى مسرفا فى سعة المكان الذى فسحته له فى هذا الكتاب » وقال « إن مزايا العصر الجاهلى وخواصه مرسومة صورها بأمانة ووضوح فى الأغانى والأناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون » وقال أيضا « إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجافية الجاهلية تصويراً أقرب مايكون إلى الدقة فى مظاهره الكبرى » وقال أحد علماء الالمان فى كتاب له يسمى عنترة أحد شعراء الجاهلية « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » فقد صور العرب أنفسهم فى الشعر صوراً منطبقة على الحقيقة من غير تزويق ولا

---

(١) هو الكاتب البحاثة الأستاذ لطفى جمعه العالم المعاصر المعروف

تشويه . وتكلم رينان الفيلسوف وهو مع ذلك طاعن فى العرب متعصب عليهم كغيره من المستشرقين فى كتابه تاريخ اللغات السامية ومعارضاتها فقال « ان الشعر الجاهلى لم يفقد قيمته التاريخية والأدبية من حيث هو تصوير صادق للحياة الجاهلية » وقد يشبه طرفه بن العبد فى معلقته خد الناقة بقرطاس الشآمي حيث يقول :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر   كسبت اليمانى قده لم يحرد

مما يدل على أن الورق كان صنفا غريبا نادراً وإنه كان يجلب من سورية فى عهد قريب من نظم هذه المعلقة فكيف بعد هذا كله يدور فى خلد أحد ان أمة بأسرها يتتابع علماؤها فى كل العصور على تناقل الأكاذيب والاحتفال بتدوين الخرافات ووضع الموازنات والكتب فى نقد هذا الأدب المكذوب ان ذلك لايجوز فى العقل ولا فى العادة وان من يجترىء على هذه الدعوى مفتون محب لتكلف الخلاف على الناس



الأدب

أثره . تاريخ الأدب ومؤرخه . فائدته . علاقته بالتاريخ العام . نشأته

قد عرفنا فيما سبق أن الأدب هو ذلك الفن الرفيع الذى يصدر جماله عن طبع الكاتب والشاعر فى الكلمة يرسلها والقصيدة ينظمها فتقع على مواضع الحس من النفس فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حنانا ورقة . وتهزها أريحية وكرما ، هو ما تتحلى به تلك الصحائف التى تزين رسومها بألوان الاخلاق وانزاعات العقول وأصدق مظاهر الحياة التى يترسمها الباحثون فى أحوال الشعوب فيجدون الهدى إلى تعليل الانقلابات وعرفان الأسباب التى صارت بالقبيل من الناس حينا إلى الرفعة أو نزلت بهم حينا آخر إلى الانحلال والضعة.

أثره : ومن أجل آثاره أنه صقال تحتك به العقول فيزول صدؤها وتتعلق به الألسنة فتعذب أسلتها : وتتعرض له الطباع فتلين جوانبها وترق حاشيتها وما أشبه الناظر من أهل الملكات فى كتاب أدب بمن يتردد فى روضة يتقلب بين زهرها ويقطف من ثمرها وأنه ليقرأ الحديث أو الخبر فلا يزال يتسرب إلى خواطره من معانيه أشباح ومعالم يفتن خياله فى تصويرها ويبتهج بتأملها عدا ما يفيد من لفظة كريمة وعبارة مشرقة وبيت نادر وحكمة مسلمة فيكون ذلك وسيلة القدوة الحسنة والتهذيب الناجح فى تربية ملكته واعدادها للانتاج القيم ولا يلبث لسانه بعد المعاودة وترداد النظر أن يستقيم له من وزن ما يقرأ وما يعلم ما يتأتاه من أسلوب قريب ومنطق صائب . والدراسة تعدى على العلم كما يقولون

وأخرى أنك تراه من بعض نواحيه كان أبداً وسيلة البلاغ وذريعة الرسل فيما يهبط عليهم من وحى السماء إذ يعتمدون على قوة البيان وفصاحة الألسنة

فى تبيان ما أنزل الله إلى الناس من حكمة وما كلفهم من دين . وفى قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » تحقيق لهـذه الصفة العالية من اختصاص الرسول دون قومه بكمال اللسـان والقدرة على الحجة والاصابة لمواقع الاقنـاع وهو الذي جعل موسى صلوات الله عليه يقول فيما حكى عنه القرآن « وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى أنى أخاف أن يكذبون » وترى الناس لا يزالون نياما فى غفلة الخمول حتى تهيب بهم ألسنة الخطباء وأقلام الـكتاب تأخذهم بأيديهم رويداً إلى العمل الصالح فتنفتح أقفال العقول وتنشط المواهب المختلفة إلى مرافق الحياة فتسفر لهم وجوه الايام عن غرائب الافـكار وعجائب الابتكار وما حمل الناس على أن يهدوا أركان البغى ويصرعوا طبائع الاستبداد أبلغ من نفثات الألسنة وأسلات الأقلام

تاريخ الادب : وأما تاريخ الأدب فهو علم يعرض لهـذا الفن فيتناوله بالتحليل والنقد واستيعاب البحث عن الأسرار الدقيقة والمؤثرات القوية التى عاشت فى خلالها العقول . واستقت من ينبوعها تلك القرائح فرسمت من مناظرها ما شاءت من الصورة الفنية من الأدب

وإذا كان على الباحث فى أحوال الجماعات . والمتعاطى لتاريخ حياتها العامة ألا يعتمد على مجرد النقل للأخبار من غير أن يتحاكم فيها إلى أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران . ومذاهب الاجتماع الانساني كما يقول الامام ابن خلدون فان على مؤرخ الادب أن يضيف إلى ذلك شيئاً من الدراسـات الضرورية لأجناس العلوم وأصول الاديان وقواعد الفلسفة وشيئاً غير قليل من الشغف الفنى الذى يتصل بنفسه فيخلق فيها مزاج الادب ويكون لها ثقافة الأديب وقد لا يغنى عن مؤرخ الأدب استحسانه لنوع منه عند نفسه وعلى قياس ذوقه إذا كان ينحرف عن هذا الذوق ولا يدخل فى اعتبار هذه الثقافة ! قال قائل لخلف الاحمر (وكان أفرس الناس ببيت شعر وأرواهم له) إذا استحسنت أنا الشعر

فما أبالى ماتقول فيه أنت وأصحابك فقال أرأيت إذا استحسنت أنت درهما ثم قال لك الصيرف أنه رديء أكان ينفعك إستحسانك له . ولذا قال محمد بن سلام ان محمد ابن اسحاق مولى آل مخرمة بن عبد المطلب قد أفسد الشعر وحمل منه كل غثاء وكان رجلا عالما بالسير ولم يكن له علم بالشعر فروى أشعار القوم لم يقولوا شعراً قط وروى للنساء فضلا عن الرجال حتى تجاوز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع الى نفسه فيقول من روى هذا الشعر ومن أداه على آلاف السنين والله يقول (وأنه أهلك عادا الاولى وثمود فما أبقى) ويقول (وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ومن هنا لم يكن تاريخ الادب مقصوراً على أن تصف ذلك الادب بأنه كان غضا أو جافياً ولا بأنه كان ضعيفا أو قويا ولا على أن تصف ذلك الشاعر بأنه نظم هذه القصيدة البارعة أو له هذه السرقة الظاهرة ولا أن تقول متى ولد ومتى مات . ولكن تاريخ الادب يتناول مع ذلك هذه النفس الشاعرة فيضرب حولها نطاقا من أحوال البيئة ونظام السياسة ومشاهد الطبيعة التى أثرت أولا فيها ثم ردتها بعد اليها مصوغة فى هذا السلك من نظام الكلام

ولعمرى أن مؤرخ الادب لو عمد إلى دراسة الكاتب أو الشاعر فى نفسه وحاول أن يأخذه من كلامه لما وفق إلى نقل الصورة الموافقة للحقيقة من ذلك فى بعض الاحيان فقد يمدح الشاعر وينشىء الكاتب عند حاكم مسلط أو خليفة قاهر فتحتجب نفسه وتختفى دخيلته لاسباب سياسية أو لشهوات خاصة وأنت تدور تبحث عن الشاعر فى هذه القصيدة أو الكاتب فى تلك الرسالة فلا تجد لهما إلا ظلا ضئيلا لا يكاد يحمل من هذه الحقيقة شيئاً بل لا يكاد يتصل بها فى شيء ولكنك إذا قرأت هذه المؤثرات القائمة ودرست تلك الدواعى الحادثة علمت أن هذه النفوس تنكرت فى صورها وتحدثت بغير خواطرها

فائدته

ومن أفضل فوائده الوقوف على مبلغ ماتصل اليه الشعوب فى حياتها العقلية ونهضاتها المختلفة بتقرير آثار العلماء والتعرض لأوضاع العلوم والتعريف بنفائس الكتب وإبراز الصورة الصادقة للحياة الأدبية فى الأمة من الأمم وما فيها من فضيلة صالحة أو رذيلة مستهجنة

علاقته بالتاريخ العام . وبذلك يقترب التاريخ الأدبى من التاريخ العام ويمت اليه بالوثيق من الصلات . ألا ترى ان الباحثين فى حياة الأمم وما تعاقب عليها من فتوح وما قام لها من دول وما تقلبت فيه من قوة أو ضعف قد لا يهتدون إلى تعليل هذه التقلبات حتى يضعها ذلك العلم بين أيديهم ويبوح بأسرارها لهم إذ كان مدار النظر فى ذلك كله الى ناحية ظاهرة من مباحثه وهى الاخلاق التى اذا حسنت نهضت بالأمة الى مطالع العظمة والارتقاء واذا ساءت انذرت بالاضمحلال والفناء والحاجة من جهة التاريخ الأدبى أيضا ماسة الى التاريخ العام فهو الذى يعين على استنباط الصورة الأدبية الصادقة بما يقصه من أعمار الشعوب وحياة الأمم وبما يقدره من حضاراتها المختلفة ونظمها السياسية والاجتماعية وسائر شؤونها العامة . فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه

نشأة هذا العلم . قد يتسرب الى الاذهان ان هذا العلم حديث النشأة وانه من اختراع هذا العصر وليس ذلك كذلك . ولكنه فى نوعه قديم تنبه اليه العلماء من السلف حين هموا بالنظر فى علوم الأمم الاخرى ونقل آثار اللغات المختلفة الى هذه اللغة العربية فنظروا أيضا فيما ورثوه عن اسلافهم من ذلك الادب فتناولوه بالتدوين وعالجوه بالتحليل والنقد ووقفوا عنده ينظرون طويلا فى محاسنه وعيوبه ويؤرخون رجاله ويرتبون طبقاته ودرجت على هذا القدر من النظر أمهات الكتب الادبية التى لم تخل من نقد حسن وتمييز صادق لجيد الكلام ورديئه والتى كانت ولم تزل هى المورد الغزير

الذى يرده الباحثون فى هذا العلم ومن هذه كتب الطبقات التى يعد من أعظمها شأنا طبقات الشعراء لأبى عبد الله محمد بن سلام وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة . ومنها الكتب الجامعة بين القصص والأدب كالأغانى لابى الفرج الاصبهانى . والكامل لابى العباس محمد بن يزيد المبرد وأمالى القالى . والبيان والتبيين للجاحظ . وقد جاءت بعد ذلك كتب تعرضت تعرضا للموازنة والنقد ككتاب الآمدى فى الموازنة بين ابي تمام والبحترى والوساطة بين المتنبي وخصومه ثم كتاب العمدة لابن رشيق فى نقد الشعر على مثال من البحث قد كان لا يزال يحتذى الى عصرنا هذا غير أنه يلاحظ ان ابحاث هذا العلم كانت فى أكثر هذه الكتب منشورة مجردة فى كثير من الاحيان من الدراسة الفنية التى استحدثها علماء المستشرقين فى الادب فى أواخر القرن الماضى وفى هذا العصر ولم يقتصر البحث عندهم على آداب لغاتهم أنفسهم بل لكثير من علمائهم فضل على تاريخ الأدب العربي وله عندهم منزلة يعرفها من لا ينكر الفضل على ذويه فهم الذين أحدثوا هذه التسمية الجديدة وانهجوا سبيل هذا البحث الحديث حتى استقل تاريخ الادب عن سائر العلوم وظهر للناس فى ذلك النسق من التبويب والتفصيل وسار المعاصرون من علماء اللغة فى مصر وغيرها فى آثار أولئك المستشرقين ووضعوا فى ذلك العلم كتبا بعضها مطول وبعضها مختصر ولا يزال العلم فى جملته على أبواب صباه

عصور تاريخ الادب . قد علمت ما قلناه من تدخل عصور الادب بعضها فى بعض وأن هذا التقسيم تقريبي مبنى على مسايرة اللغة للانقلابات السياسية فى مبادئها ونهايتها وان كانت المسايرة بطيئة متدرجة كما أوضحناه

والمراد بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزمنية التى تجمع الى الآداب ماله بها ارتباط قوى من الأنظمة الاجتماعية والحالات السياسية والدينية التى لها شأنها فى تصوير الأدب بصورة العصر الذى ينشأ فيه ويتبع ذلك الكلام على

العلوم كلها معا فى كل عصر على حدة وهذا هو الذى اتبعه من تصدروا للتأليف فى هذا العلم فهم قدقسموه الى قسمين كبيرين يفصل بينهما أهم انقلاب تاريخى أصاب العرب فى حياتهم كلها وهو ظهور الاسلام فبهذا الاعتبار يقسم التاريخ الأدبي الى قسمين أحدهما قبل الاسلام والآخر بعده ولكل منهما أقسام تابعة له فما قبل الاسلام ينقسم الى عصرين عصر الجاهلية الأولى وعصر الجاهلية الثانية ومابعده ينقسم الى عصر صدر الاسلام ويشمل العهد الأموى من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ ثم العصر العباسى من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ثم عصر الدول المتتابعة حتى زمن محمد على باشا ١٢٢٠ هـ ثم عصر النهضة الحديثة من زمن محمد على إلى وقتنا هذا

جزيرة العرب

هى اسم لشبه الجزيرة الواقع بالطرف الغربي من آسيا يحيط به الخليج الفارسى وبحر العرب والبحر الاحمر وكان موطن العرب قبل الاسلام وقد قسموها الى خمسة أقسام

١ اليمن : وهى بالجنوب وتنقسم إلى حضر موت ومهرة ونجران وعمان والشحر وقد يسمى شحر عمان

٢ الحجاز : ومن مدنه مكة وفى جنوبها جبل ثور وفيه الغار الذي بات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر إلى المدينة ومنها يثرب أو المدينة وتسمى أيضا مدينة الرسول وإلى شرقها جبلا أجأ وسلمى المعروفان بجبلى طىء

٣ تهامة : وهى بين الحجاز واليمن

٤ نجد : وهى بين الشام والعراق واليمامة والحجاز . وهى أطيب أرض فى بلاد العرب وكانت فيها معادن الفصاحة العربية وفيها أيضا أرض العالية التى

كان يحميها كليب بن ربيعة وفيها قتل ونشبت بسبب ذلك حرب البسوس التى يضرب بشؤمها المثل

٥ اليمامة : وتسمى العروض لاعتراضها بين نجد واليمن

اصل العرب

العرب هم احدى السلائل السامية التى تنتسب الى سام بن نوح ويكاد المؤرخون يجمعون على ان المهد الاول لهذه الشعوب السامية هو وادي الفرات أو ما بين النهرين وانهم لما كثروا وضاقت بهم رقعته تشعبوا إلى البقاع المجاورة له وظهر منه البابليون والاشوريون فى العراق والآراميون فى الشام والعبرانيون فى فلسطين والفينيقيون فى سواحل سورية على حذاء لبنان والعرب فى الجزيرة المنسوبة اليهم والاتيوبيون فى الحبشة ويستند هؤلاء فيما يذكرون إلى نصوص التوراة . ويزعم هيردوت المؤرخ الاغريقى أن الفينيقيين نزحوا فى الألف الثالث قبل الميلاد إلى فينيقية من سواحل خليج العجم وبذلك يظن فريق من المستشرقين أن أصل الساميين من الحبشة وأنهم عبروا البحر الى جزيرة العرب من باب المندب فنزلوا باليمن ونجد والبحرين ثم نزحت طوائفهم الى العراق والشام وسوريه وأسسوا دول بابل وأشور وفينيقية وغيرها ولكن هذا الرأى خلاف ماعليه جمهور المحققين من المؤرخين

اقسام العرب

اصطلح المؤرخون على تقسيم العرب الى طبقات ثلاث بائدة وعاربة ومستعربة

اما الطبقة الاولى أو العرب البائدة : فقد انطوت أخبارهم فى حجاب الغيب الا قليلا مما ورد فى القرآن عن بعض قبائلهم التى من أشهرها عاد وكانت منازلهم بالاحقاف . وثمود وكانت بالحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام

وطسم وجديس وكانتا تسكنان اليمامة قريبا من عهد ملوك الطوائف من الفرس والعمالقة وقد نزلوا أولا بلاد اليمن ثم انحدروا الى الشام والعراق ويثرب ومنهم الشاسو أو الهكسوس وهم فراعنة الرعاة بمصر. ويزعم بعض المؤرخين أن الحمورابيين من العرب البائدة لما رأوا فى لغتهم من بعض المشابهة للغة العربية ولو صح ذلك لدخلت سائر الشعوب السامية من أنباط وحبش وغيرهم لهذا السبب فى العرب أيضا وهو غير معقول .

فالحواربيون أو البابليون القدماء ينسبون الى حمورابى أحد ملوكهم وقد عثر فى أوائل هذا القرن فى أسوس على مسلة من الحجر الاسود عليها نقوش لشريعة هذا الملك العظيم فى نحو ٢٨٢ مادة فيها حماية الحقوق وأحكام الزواج والطلاق والارث . وقد عثر أيضاً فى بلدة زيبارا على أطلال مدرسة بابلية فيها ألواح من القراميد عليها دروس للأطفال فى الهجاء والحساب مما يدل على أن التاريخ شهد أقدم مدينة للساميين فى هذه الاصقاع

الطبقة الثانية أو العرب العاربة : وهؤلاء بنو قحطان نزحوا من أراضى الفرات واتخذوا اليمن منازل لهم والمشهور منهم دولتان هما سبأ وحمير فأما سبأ فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون وقد بلغوا من الحضارة على قدر أيامهم مبلغا عظيما فغرسوا البساتين وأقاموا السدود وحفروا الترع وشادوا الهياكل والقصور ومكثوا ماشاء الله حتى دب اليهم داء الأمم من الترف والتفاسد فأهلكم الله بسيل العرم ومزقهم فى الأرض كل ممزق وخلفهم الحميريون وهم فرع منهم فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وتاريخهم غامض مملوء بالتفكيك والاضطراب وليس للمؤرخين اتفاق على شى من أمرهم ولا عدد ملوكهم أو تبابعتهم ولا مدة حكمهم إلارجما بالظن لا يصل إلى أدنى مراتب اليقين العلمى وقد زالت دولتهم فى أوائل القرن السادس الميلادى وكان قبل سبأ وحمير دولة أخرى عرفت بالمعينية نسبة إلى مدينة معين التى كشفت أطلالها حديثا فى الجوف الجنوبي من بلاد اليمن ويقال أن أصلهم من بقايا البابليين

نزحوا الى اليمن بعد زوال ملكهم وتفرق دولتهم وكانت لهم أمارات تسمى المحافد واذا اجتمع لأمير منهم جملة محافد أطلق عليها اسم المخلاف وقد بقيت بعض مبانيهم إلى ظهور الاسلام ومنها صرواح وغمدان وبرانش وغيرها

وأشهر بطون حمير . حمير وكهلان . ومن حمير قضاعةوقد تفرقت بطونها فى جزيرة العرب فى نجد والبحرين ومشارف الشام والعراقواشتملت علىأكثر أخبارهم رمال الصحراء غير أنه ظهر من تنوخ وهى من بطون قضاعة دولة عظيمة كانت فى العراق لجذيمة الابرش صاحب الزباء (١) فى القرن الثالث الميلادى وقد ملك الحيرة والانبار وأكثر البقاع المجاورة لبادية العراق وهو أصل دولة المناذرة اللخميين بالحيرة ولقضاعة بقايا بالحجاز وببلاد الصعيدمن الديار المصرية

وأما كهلان فمن بطونه الازد بنو غسان ملوك العرب بالشام ومنها طيء وقد نزحوا من اليمن على أثر خروج الازد عند تفرقهم بسيل العرم ومن كهلان أيضا الأوس والخزرج وقد نزلوا المدينة ومنها زبيد رهط عمرو بن معديكرب ومنها كندة والنخع وبجيلة وقد رحلت كندة الى نجد ومنها ملوك كندة كان آخرهم أمرؤ القيس الشاعر

(الطبقة الثالثة) أو العرب المستعربة : وكانت منازلهم شمالى بلاد اليمن فى

---

(١) وتعرف فى كتب الافرنج باسم زينوبيا وكانت فى القرن الثالث الميلادى ملكة على تدمر الواقعة الى الشمال والشرق من مدينة دمشق . وكان ملوك روما مع خضوعها لهم يهابونها ويهدون اليها وقد أرادت أن تتخلص من ولايتهم . فواقع القيصر جموعها فى معركة حامية بالقرب من مدينة حمص فهزمهم هزيمة منكرة واتبع فلولهم الى تدمر ففتحها وهربت زينوبيا من وجهه ولم تقم لتدمر بعد ذلك قائمة واندمج أهلها فى العرب الذين أخذت طلائعهم تظهر على شواطىء الفرات وسورية . والعرب فى قتلها روايات أشبه بالاساطير .

تهامة ونجد والحجاز الى مشارف الشام والعراق وهم يسمون أيضا بالأسماعيلية نسبة الى جدهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ويسمون أيضا العدنانيين نسبة الى عدنان أحد أحفاد اسماعيل . وكانوا بدوا أهل رحلة يقيمون حيث يكون الماء والكلأ ولم يكونوا كاليمنيين أهل قصور وحضر . وهؤلاء العدنانيون هم من ولد معد بن عدنان وقد عقب نزارا وولد نزار أنمارا وأيادا وربيعة ومضر . فأما ربيعة فأشهر بطونها بكر وتغلب . وأما مضر فخلف إلياس وولد إلياس ثلاثة وهم قيس عيلان وطابخة ومدركة . فمن قيس عيلان هوازن وسليم وغطفان . ومن غطفان عبس وذبيان . ومن طابخة ضبة وتميم . ومن مدركة هزيل وخزيمة . ومن خزيمة أسد وكنانة ومن كنانة فهر وهو قريش

نشأة اللغة

قد يكون القول فى أصل اللغات ونشأتها وتفرع طوائفها فى الزمن القديم ومحاولة الاهتداء الى وجه الرأى فى لغة الأنسان الأول مما يتكفل ببحثه فقه اللغة غير أننا نرى من تمام الفائدة أن نشير فى إيجاز إلى خلاصة ماقيل فى ذلك من آراء الباحثين من علماء اللغات لنجعله بمثابة الأساس لبناء بحثنا فى أصل العربية ونشأتها فنقول

اختلف العلماء فى نشأة اللغات على رأيين فمنهم من يرى أنها وحى وتوقيف من الله سبحانه وتعالى علمها الأنسان الأول وكأن أصحاب هذا الرأى يتوهمون ان الأنسان حين خلق كان الوجود فى حالة عماء وسكون مطبق فلم يكن يسمع صوتا ولا يحس من أحد فكان من الضروى أن يلهم لغته الأولى التى هى بمثابة الاداة الجوهرية فى الاحتفاظ ببقاء ذاته وإن كان هؤلاء لايكتفون بهذا القدر الضرورى من الالهام ويزعمون ان الله علمه لغات البشر ماخلق منها ومالم يخلق وهى الآن تعد بالآلاف ومن أصحاب هذا

المذهب (أفلاطون) وتابعه ابن فارس والاشعرى وغيرهم من العرب ويستدلون بقوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) أى الهمه على تأويل لغات العالم ونحن نرى أنه لافائدة فى هذا الالهام ولا داعى الى تعليم الانسان الأول لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة إليه ولتعذر الاستفادة منه فى ذلك التاريخ المفقود ويزيد فى ضعف هذا الدليل أيضا تأويل الآية على وجه آخر وهو ان المراد بالاسماء فى الآية أسماء الملائكة لا أسماء ولغات أهل الدنيا

ويرى غير هؤلاء ان اللغة وان كانت حدثت مع الانسان فى أول نشأته إلا أنها مع ذلك تعتبر من أنواع الوجود الطارئة عليه فهى خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغير والتدرج فى طبقات النمو والتحول فى أدوار التماثل الى الكمال . وإنها بناء على ذلك وقفت بالتدريج عند درجات الحدوث من الطفولة إلى مايليها من صفات الكائنات الحية وكانت نتيجة لمواضعات مختلفة مبنية على دراسة تقليدية طويلة ، وأهل هذا الرأى لا يأبون التسليم بأثر الالهام فى تكوين اللغة على هذا النحو الفطرى ولا يفهمون من الالهام أكثر من أنه هو الاقدار على الارتجال والتحويل أو التنويع فى التقليد والمحاكاة بقدر ما فى الانسان من قوة التمييز العاقلة التى ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم

فالانسان الأول عندهم طفل تاريخى بدأ على غالب الظن لغته الأولى بالاصوات الفطرية الدالة على الانفعالات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة والفزع واللذة والألم بدأ بهذه وحدها أو كانت مصحوبة . بالاشارة الحسية التى توسع فى التفاهم بها إلى أن صار يدل على الشيء بالاشارة إلى أوصافه أو إلى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن فى تعبيره عن الرجل بامرار يده على شاربيه وعن المرأة بتكوير يده ووضعها على صــدره ثم بعد ذلك أخذ يحاكى الاصوات المختلفة التى تتقلب كل حين على سمعه وبين يديه من حفيف

الريح وهزيم الرعد وخرير الماء ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن محدثه كما يسمى الاطفال عندنا كثيرا من الحيوان بما يسمعونه من أصواتها يقولون للدجاج (كاكا) وللهرة (نونو) والشاة (ماما) وهكذا ثم تكون له من تلك الاصوات مقاطع صوتية متنوعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسايرة لحاجات الحياة الأولية ، ولما استقام له ذلك حكى على مثاله وتابع ما يتجدد له من الحاجات بالوضع تارة وبتقليب الدوال القديمة تارة أخرى حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الالفاظ تدريجياً عن المحاكاة والاشارة وان كانت الوراثات المتعاقبة أبقت فى لغات الانسان المتمدين بعض ما يدل على استعانته بالاشارة فى تكوين لغته الاولى كما يشاهد فى أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه وتقطيب الجبين والاشارة باليد والايماء بالحاجب واللحظ واللسان مما هو معروف

وقد كان هذا الدور الاستقلالى للالفاظ على دهور متطاولة . كان اللفظ الواحد يقع فيها على المعاني الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى والاسم والفعل كما كان ذلك شأن الانسان فى بقية فروع الحياة الأخرى إذ كانت القطعة من الجلد تقوم لها مقام اللباس والفرش والآنية والجنة وغير ذلك إلى أن استحدث لكل نوع من هذه كفاية خاصة وسمى لها أداة جديدة ومر ذلك التسلسل اللغوى أيضا باجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور حدث له فى خلالها التمييز بين الاسماء والافعال ودخلت فى لغته الحروف والادوات وتولدت بعدها مميزات الجنس والعدد وبعض صيغ الاشتقاق وانتهى نوع ذلك الكمال اللغوى فى بعض هذه اللغات بظهور الاعراب كما فى اليونانية واللاتينية القديمتين ، وظهرت أصول اللغات فى أسرة الامم الكبرى من أبناء نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقلب أول صفحة من تاريخ البشرية المعروف وإلى هذا القول بالمواضعة يذهب أكثر المحققين من اللغويين

وعلماء الاصول وإليه ذهب من علماءالعرب أبو على الفارسى من علماء القرن الرابع الهجرى وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى فى خصائصه : وقد توقف فى آخر الفصل الذى عقده فى كتابه لبيان أصل اللغة أئلهام هى أم مواضعه وهذا آخر كلامه بعد أن شرح المذهبين (وان خطر خاطر فيما يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به وبالله التوفيق) ولكنه جزم بهذا الرأى بعد ذلك

ولقد اصطلح اللغويون من علماء العصر على تقسيم ماعرف من لغات هذه الامم القديمة إلى مرتقية وغير مرتقية . وجعلوا من غير المرتقية اللغة الصينية والمصرية القديمتين ويرجح بعض المؤرخين من طريق الظن العلمى أن الصينيين والمصريين القدماء من أقدم الأمم التى نزحت من شواطئ الفرات قبل الطوفان وأن لغتيهما فى سذاجتها وقلتها ترجح إتصال نسبهما بقايين أو قاييل أحد أبناء آدم خصوصا أن التوراة قد وصفت نسل قايين (قاييل) هذا بالمهارة فى الصناعة و الصينيون اقدم من عرف من أمم الارض بالحذق فى الصناعة

ومن غير المرتقية أيضا اللغات الحامية التى منها لغات زنوج افريقية وهنود أمريكا الذين هم على الراجح عبيد أفريقيون استخدمهم الاسبان فى هذه الاقاليم بعد الفتح

وأما الراقية فقد جعلوها أيضا قسمين متصرفة وغير متصرفة .وغير المتصرفة هى اللغات الطورانية أو المغولية وهذه تشمل الفروع التى يتفاهم بها سكان البلاد التى بين شرقى النمسا وآسيا الصغرى فبلاد التترو منها التركية ومعنى عدم تصرفها أن الاشتقاق فيها يكون بالحاق أدوات لامعنى لها فى نفسها لأصول ثابتة لاتتغير ككلمة (ياز) ومعناها فى التركية الأصل الدال على الكتابة يؤخذ منها الماضى بالحاق (دى) فيقولون (يازدى) ومعناه كتب وكذلك يفعلون عند النفى والجمع وغير ذلك يضيفون أدوات كثيرة وتبقى الكلمة كما هى

وأما المتصرفة فهى السامية والآرية ويقال لها أيضاً اليافثية نسبة إلى يافث بن نوح ومنها لغات جنوبي آسيا التى منها السنسكريتية وفروعها كالفارسية والهندية والافغانية وغيرها ومنها لغات أوربا التى أشهرها اللاتينية وفروعها من لغات فرنسا وإيطاليا واسبانيا والهيلينية ومنها اليونانية القديمة والحديثة ووندية ومنها لغات روسيا وبلغاريا وبوهميا وتيوتونية . ومنها لغات انجلترا وألمانيا وهولاندة والدانمارك

وأما السامية أى المنسوبة الى سام بن نوح فهى تمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوراة والانجيل والقرآن وبأن التمدين القديم ظهر أولا بين المتكلمين بها فى بابل وأشور وفينيقية وهى اللغات البابلية الأشورية . والكنعانية أو الفينيقية . والعبرية والآرامية . والحبشية . والعربية — ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعبرية والآرامية مستدلا بما لاينهض بصدق دعواه

اللغة العربية

أصلها عوامل نموها خصائصها اختلاف لهجاتها طرق تهذيبها الأسواق العربية وأثرها

لايستطيع المؤرخون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل علمى يبينون به الأصل اللغوى الذى انشعبت منه هذه اللغة وغيرها من أخواتها السامية التى تنتسب إلى أب تاريخى مجهول ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامي الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللسان البابلى القديم فان تلك ظنون أدى إليها وجود بعض المشابهة بينه وبين هذه العربية لايبعد أن يكون سببه هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغيرها يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الانسان الاولى التى لاتزال هى الأخرى مختبئة فى ضمير

الزمن ، وقد يستأنس لهذا الاتصال بما بقى فى لغات العالم المختلفة من المشابهة فى بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة كلفظ الأب والأم والقوت التى تعد من أقدم ما تعلمه أو نطق به الانسان وهى تكاد تكون واحدة فى كل لغات البشر ، وكضمير الخطاب فانه اذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف التاء فى أكثر اللغات

وغاية ما توصل اليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية أن لا بد أن يكون دخلها فى أدوار التكوين شيء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحميرية والعبرية وبعض الآرامية القديمة وبيان ذلك أن عربية عدنان الذى ينتهى اليه عمود النسب العربي الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه الى اسماعيل أبي العرب المستعربة وهم يقولون إن اسماعيل صلوات الله عليه كان له لسان آخر عبراني أو كلداني نسيه وتعلم العربية من العرب العاربة أو القحطانية حين هاجرت جرهم الثانية الى بلاد العرب ونزلت بمكة وامتزج بهم اسماعيل بالصهر والجوار ونشأ منهم ومنه جيل عربي جديد هم العرب المستعربة أو الاسماعيلية ويقولون أن أولئك القحطانيين أصلهم من الحبشة عبروا الى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا إلى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من المعينيين الذين هم قبائل من بدو الآراميين أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا الى بلاد اليمن فعمروها وكانت لهم بها دولة قبل السبئيين والحميريين وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى انتهت بعد فى آخر صورها بالخط المسند أو القلم الحميرى المشهور واذا تكون هذه اللغة العدنانية مزيجا موروثا من هذه اللغات السابقة وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض وقد تمثلت بعد ذلك فى المضرية الفصحى فى الوقت الذي ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود دخول أوائل القرن السادس الميلادى وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربية وصارت العرب تقريباً بما أدخلوه على لغتهم من

ألوان التنقيح وعوامل التهذيب الى وحدة لسانية عامة لا يشوبها الا قليل من الخلاف المنطقى الذى لم يتعد صورة النطق بالكلام اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات وقليل مما بقى من الأشباح المتخلفة من الحميرية القديمة فى بعض قاصية القبائل اليمنية التى لم تتأثر بهذه النهضة اللغوية التى انتهت برجة عنيفة اهتزت لها أقطار الجزيرة وهى ظهور الاسلام وهذه إذا كانت هى العربية الفصحى لغةالشعر والنثر الجاهليين وهى لغة قريش التى نزل بها القرآن على أفصح العرب محمد صلوات اللهوسلامه عليه وهى اللغة التى ندرس اليوم آدابها ونؤرخ فنونها وطبقات المتكلمين بها فى عصورها المختلفة وكانت قبل الاسلام محصورة فى هذه الجزيرة العربية فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الاسلامية بين أواسط الهند شرقا ومضيق جبل طارق غربا وبين البحر الأسود وبحر العرب شمالا وجنوبا ووسعت أصقاع العالم المتمدن من ذلك الحين الى وقتنا هذا

عوامل نمو اللغة

قد علمت مما سقناه فى الكلام على نشأة اللغات ميلنا الى المذهب الوضعى والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة وليست وحيا ولا توقيفا وهى بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة بل كانت تتكون من الارتجال والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضرورى ثم يتناولها بعد ذلك من دواعى الارتقاء وعوامل النمو أسباب كثيرة من القلب والابدال. والنحت والاشتقاق. والمجاز ونحن نفصلها لك باختصار فنقول

القلب وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله وهو أقل أثرا من الابدال ومن ذلك قولهم جذب وجبذ ولطم ولمط وسكب وسبك. وكل هذه بمعنى واحد أو متقاربة وكذلك قولهم بعض وبضع وكلاهما بمعنى قطع ويحدث القلب فى

فى اللسان اعتباطاً فى الغالب وقد يكون سببه التخفيف فى اللفظ أو التفنن فيه ومثل ذلك كثير الحدوث فى العامية المصرية تقول العامة « جوز » فى زوج وتقول « أجا » فى « جاء » وقد تكون هذه سرت اليهم من عوام أهل الشام

او بدال . وأما الابدال فى ألفاظ اللغة فهو أعظم أثراً وأوسع دائرة وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه لفظا ويقع غالباً بين الحروف التى من مخرج واحد أومن مخارج متقاربة يقولون مدح ومده والحثالة والحسالة والحفالة للردئ من كل شيء واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب إلى الحاكم أن ينصفه منه وغير ذلك من الامثلة كثير .

وهو فى الغالب نتيجة علة طبيعية فى أعضاء النطق فى أول الامر ثم يصيره الاستعمال مستقلا عن الأصل وان حفظ معناه أو تغير عنه بعض التغيير وربما جعلوا لكل نوع من الالفاظ الحادثة مايقابله من تنوعات المعنى الاصلى فيقولون مثلا لطم إذا ضربه بكفه مفتوحة ولدمه إذا ضربه بشيء ثقيل . وكما يقولون فى قضم انه الأكل باطراف الاسنان وخضم أكل رطباً أو أكل بأقصى الأضراس ومن نحو هذا ماتجدونه فى اللغة العامية المصرية فانهم يجعلون من ثقيل بالثاء لفظين لكل منهما معنى مستقل فقالوا « سقيل » بالسين بمعنى ثقيل الظل وقالوا « تقيل » بالتاء بمعنى رزين وقالوا فى ثبات « سبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر وقالوا « تبات » بالتاء بمعنى الوقاحة أوصفاقة الوجه

ويمكنك أن تدرك كيف كان الابدال من عوامل نمو اللغة وزيادة ثروتها اللفظية والمعنوية بالمثال الآتي : وذلك أن مقطع « قط » وهو حكاية صوت القطع قد تولد منه بالابدال تنوعات كثيرة منها قص وخص وخد وقد وكس

وجد وجز . وكل واحدة من هذه الانواع تولد عنه عدة ألفاظ فمن « قط » تولد قطع وقطب وقطف وقطم . ومن « قص » تولد قصم وقصل وقصب وقصر وقصف ومن « كس » تولد كسر وكسع وكسم وكسح ومن « جذ» تولد جذب وجذ . وجذم . ومن «جز» جزأ وجزع وجزم وجزل وهلم جرا . والدليل على أن هذه وأمثالها أنواع لذلك المقطع أنك ترى فيها جميعاً معنى القطع وان كان بعيداً فى بعضها كخدع فانه من خد . وقالوا (والخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو بصدده)قال الامام البيضاوى (ولا يخفي ما يستملح فى هذا من معنى القطع أى أن تقطعه عنه أو تقتطعه دونه) ومثله خدر البنت فان معناه ألزمها الخدر أى قطعها عن الاختلاط بالناس وغير ذلك فى نحو قسم وقسط وقرص وقرض مما لايخفى على المتأمل رده إلى معنى القطع وأنت ترى من هذا أن كثرة هذه الانواع حادثة فى الاصل من حكاية صوت القطع ويمكنك أن تقيس على هذا امثاله من مواد اللغة لتدرك مبلغ تأثير الابدال فى ترقية اللغة وتنميتها

النحت : أما النحت فهو صوغ كلمة من كلمتين فأكثر كقولهم حمدل إذا قال الحمد لله وبسمل وحوقل وسبحل وحسبل إذ قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وسبحان الله وحسبنا الله ومثلها الطلبقة والدمعزة فى أطال الله بقاءك وأدام عزك وكقولهم عيشمى وعبقسى فى النسب إلى عبد شمس وعبد القيس وفائدته اختصار الالفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق وهو مع ذلك نماء فى اللغة لأنه زيادة فى عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف إنما هى بقايا الفاظ لها معنى فى نفسها وانها إنما صارت حروفا بعامل النحت ومن ذلك حروف المضارعة فانهم قالوا أنهم أخذوا

الهمزة (من أنا) والنون من (نحن) والتاء من (أنت) واليـاء من (هى) وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الاصول تقريبا فأدت المعاني مع اختصار اللفظ

ورجحوا أن الاصل فى استعمال باء الجر للظرفية لانها لا تستعمل فى اللغات السامية إلا لها وقالوا أن أصلها بيت بدليل أن هذه فى السريانية معناها فى أو بين ثم صارت بى فى الكلدانية ثم الباء وحدها فى العربية فكأن البـاء بقية لفظ بيت أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ

الاشتقاق والمجاز : ولم يعد لاحد من المتكلمين بالعربية الآن حق فى استعمال الاسباب السابقة من عوامل نمو اللغة فى وضع ألفاظ جديدة بازاء ما يستحدث تباعا من المعاني المبتـكرة تنمو بها اللغة وتتكاثر مادتها لأن ذلك على ما يقولون حق خاص بالعرب وحدهم وقد انقضى دهره منذ القرن الثـانى من الهجرة وان لك أن تقول حينئذ أن أكثر اللغات الحية من هـذه السبيل قد يفضل اللغة العربية لخلوص هذه اللغات على الاقل من قيود الصبغة الدينية التى دعت أهل العربية الى المحافظة على صورتها الموروثة استبقاء لطريق فهم الشريعة وحرصا على سلامة الكتاب والسنة الذين هما عماد الملة وقوام الاسلام ولئن فاتنا الشىء الـكثير من هذا بجانب تلك الوثبات القوية للغات العالم فى طريق التوالد والنمو لن يفوتنا ما نتعوض عن ذلك من طريق الاشـتقاق والمجاز فان كلا منهما قد بنى على مقاييس ثابتة تمكن من اتخاذهما طريقا معبداً لغنية اللغة وازدياد ثروتها والاخذ بيدها إلى مساماة الحضارات العلمية المتجددة بقدر ما تدعو اليه الحاجة بشرط أن يتخذ الانتفاع بهذين العاملين وجهة قوية تعتمد فى حياتها على سلطان الحكومة القائمة بتأسيس مجمع لغوى يضم نخبة من رجال العلم وحملة اللغة وأهل الصناعات الراقية المختلفة يمكن أن يثمر مجهودهم فى

المستقبل مايعد كفاية للحاجة وسداداً لهذا النقص على قدر المستطاع

أما بقاء الحال كما هى من غير قياس يرجع اليه أو حكم يرضى بحكومته فقد تكون مدعاة الى تزايد مايرى من بعض المتهجمين على اللغة ورميها بما هى بريئة منه من العجز والقصور أو الجمود والتأخر . وإذا كنتم تعرفون مطاوعة الاشتقاق والمجاز لألسنة المتكلمين والواضعين فى أخذ كلمة من كلمة تشترك معها فى مادتها وتركيب أكثر حروفها على ماهو معروف فى صيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والاداة وغير ذلك من ضروب الاشتقاق أو نقل كلمة من معنى إلى معنى آخر بينهما مشابهة بقرينة وهو باب المجاز فلا حاجة إذاً إلى الاطالة بذكر أمثلة لها

خصائص اللغة العربية

وكل ماسقناه من العوامل السابقة لايختص بلغة دون أخرى بل هو أمر عام تشترك فيه معظم اللغات الراقية الآن غير أن العلماء يذكرون لهذه اللغة العربية عوامل نمو خاصة وهى ما اصطلحوا على تسميته بخصائص العربية وستعرف فيما يأتى أن هذه التسمية أيضا فيها شئ من المبالغة إذ أن بعض هذه الخصائص كالاعراب والاشتراك اللفظى والايجاز يوجد فى غير العربية من لغات العالم ، ونذكر من هذه العوامل أو الخصائص

(١) **الاعراب** : وهو من صفات العربية قديما وحديثاً ولا عبرة بقول من يقول إن من العرب من كانت له عامية ملحونة فان ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلا نادراً لايعتد به ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة موازية للغات الخاصة من الشعراء والاشراف وتشارك اللغة العربية فى هذه الميزة الالمانية والحبشية وتكاد تنسلخ عنه الالمانية على مرور الايام

(٢) **دقة التعبير في الألفاظ والتراكيب . أما في الالفاظ فيكاد يوجد** عندهم لكل معنى من المعاني وأجزائها لفظ خاص ولقد سموا أجزاء الحيوان والانسان والنبات والطير والليل والنهار فجعلوا لكل جزء منها لفظا يخصه فساعات النهار مثلا الذرور فالبزوغ فالضحى فالغزالة فالهاجرة فالزوال فالعصر فالاصيل فالصبوب فالحدور فالغروب . وهى أيضا البكور فالشروق فالاشراق فالرأد فالضحى فالمتوع فالهاجرة فالاصيل فالعصر فالطفل فالحدور فالغروب . وساعات الليل الشفق فالغسق فالعتمة فالسدفة فالفحمة فالزلة فالزلفة فالبهرة فالسحرة فالفجر فالصبح فالصباح

ومن ذلك تفرع المعاني من الفعل الواحد ونذكر مثلا لذلك فعل النظر يتفرع إلى رمق ومعناه نظر الى الشيء بمجامع عينيه ولحظ أى نظر من جانب اذنه ولمحه نظر اليه فى عجلة وحدجه رماه ببصره مع حده وشفن نظر كالمتعجب أو الكاره فان أدام النظر فى سكون طرف قيل رنا إلى غير ذلك مما نراه مبسوطا فى مثل المخصص وفى كتب فقه اللغة وقد يعتبر القول بانفراد العربية وحدها بهذه الخصيصة ضربا من السذاجة والمكابرة

وكذلك دقة التعبير فى التراكيب وأتيانها على تمام مقتضيات الاحوال من الاسراف أن ندعى اختصاصها بالعربية فان لكل لغة بلاغتها وكما يوجد عندنا من مختار المنثور والمنظوم مما يشتمل على أسرار الفصاحة واعجاز البيان فقد يوجد مثل ذلك فى أذواق أهل اللغات الأخرى فى مختار منظومهم ومنثورهم غير أن مزيدات الافعال وصيغ المشاركة خاصة بالعربية حقيقة إذ هى تعبر باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لا يتأتى التعبير عنها فى غير العربية إلا بعدة ألفاظ كتقاضوا وتقاتلوا

(٣) **الايجاز .** والعرب أقدر على هذا النوع من البيان من غيرهم من

الامم التى لاتخلوا بلاغتها من شيء منه . وقد تصل العبارة من القصر الى حد لايماء والاشارة مع اشتمالها على المعنى ووفائها بالغرض كالمثل والحكمة وقلما تـكون لغة من لغات العالم كالعربية فى هذين

(٤) الترادف والتضاد . وقد فاق العرب فيهما سائر الأمم فعندهم للمطر والريح والنور والظلام والاسد والسيف والناقة والخمر والماء والبئر أسماء كثيرة من عشرين فى بعضها الى ثلثمائة فى بعضها الآخر وكذلك الشأن فى الاوصاف (١) فالطويل والقصير والـكريم والبخيل والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يعبر بها عنها تعد ثروة واسعة فى اللغة ومفرداتها

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت فى الاصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد وظواهره ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وكادت تتجرد هذه الالفاظ من تلك الفروق والاوصاف بالاستعمال وغلبت عليها الاسمية فان الخطار والحطام والباسل والاصيد من أسماء الاسد ترى أن لـكل لفظ منها وصفا خاصا مغايراً لما يدل عليه الآخر وكذلك مايعد من أسماء السيف كالمصمم والهندى والحسام والعضب والقاطع وغير ذلك وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله فى العربية لغات لقبائل مختلفة لم يراع نقلة اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه وهو عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأستاذ عند محاولة البسط والترغيب فى فضائل الأمور والبلوغ الى تقريب الغامض من حقائق الأشياء وتـكشيف المعانى المبهمة بعرضها فى جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها فى النفوس

---

(١) يقال طويل . وطوال ـ وشوذب وعشنط ـ ويقال رجل قصير وحنبل وكهمس ومحتر والقصير والطويل أخفها ـ ويقال رجل كريم وجواد وسخى ـ وسميذع ـ وغطريف وأريحى ـ ويقال بخيل ولحز وشحيح ـ وفاحش ويقال شجاع وذمير ـ وبهمة ـ وبطل وصمة ونهيك

وأما التضاد وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده فهو من خصائص اللغة العربية . كالجون للاسود والابيض والجلل للعظيم والحقير والشف للزيادة والنقصان وفى اللغه من هذا ونحوه مئات من الالفاظ يدل كل واحد منها على الشيء وضده . وينبغي أن يلاحظ فى التضاد أيضاً اختلاف الوضع كما سبق لأن الاصل فى وضع اللفظ أن يكون أداة للفهم لا وسيلة إلى الأبهام والتعمية

(٥) الاشتراك اللفظى : أى دلالة اللفظ الواحد على المعانى الكثيرة

وقد يكون هذا من عيوب اللغات وقصورها إلا إذا استطاع المتكلم أن يجد لهذه المعاني دوال أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظى فقد قدمنا أن الانسان فى بدأة نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعاني الكثيرة وكان ذلك من معاني العجز فى اعتبار علماء اللغة عن ايجاد الكفايات اللفظية لهذه المعاني إذ كانت اللغة لا تزال حينئذ فى طور الوجود الأول تقريباً وإذاً لا ينبغي أن يعد الاشتراك اللفظى دليلا على رقى اللغة إلا على النحو الذى قدمناه ومن ذلك مثلا كلمة الروح . والعين والخال فالروح ما به الحياة ويؤنث وهو الملك والوحى والقرآن وجبريل وعيسى والعين . الباصرة والجارية والسحاب واليد والدينار والذهب والجاسوس . والخال أخو الأم والمخيلة والواء والظن والكبر والشامة وغيرها كثير فى اللغة نكتفى بهذا منه

اختلاف اللهجات

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع فى جملته الى ثلاثة أوجه ويلاحظ أن العلماء كثيرا ما يضعون اللغة مكان اللهجة

الاول : ما يكون من تنوع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ وهو أهمها ويرجع سببه فى الغالب الى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة كالذى يرى الآن فى القرون المتجاورة والمتباعدة فى أعلى مصر وأسفلها ومن أمثلة ذلك قول بعضهم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « ماترى فى رجل ظحى بضبى » فقال له وماعليك لو قلت « ضحى بظبي » فقال أنها لغة بالكسر فكانت هذه أعجب

الثانى : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التى تنطق به فى المترادف (١) والاضداد وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربي مع اطباق العرب على النطق بخلافه وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك وقع لهذا العربي من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها واذا يكون التحويل فى اختلاف اللهجات على الوجه الاول وهو لايتعدى صورة النطق بالكلام ويلحقها فى بعض الاحيان ابدال حرف بآخر كابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن اذ يقولون با اسمك . مكان ما اسمك : ويقولون مكر فى بكر وكتردد الكلمة بين الادغام والفك وبين الاتمام والنقص أو بين الصحة والاعلال والاعراب والبناء فمثلا أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المضعف المجزوم بالسكون وامره . وتميم تقولها بالادغام : وخثعم وزبيد تنقص نون من الجارة فيقولون خرجت مليت كلغة عامة مصر فى قولهم خرجت من البيت . وغيرهم من العرب يتمها . وطيء تعل الافعال الثلاثية التى من باب فرح كبقى ورضى بقلب يائها الفا وكسرتها فتحة وغيرهم يصححها وقيس بن ثعلبة تعرب لدن وغيرهم يبنيها

---

(١) روواأن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين فقال له ناولنى السكين فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد فكرر له القول حتى قال آلمدية يريد ؟ وأشار اليها فقيل له نعم فقال أو تسمى عندكم سكينا ودوس بطن من الازد وهى يمانيه

هذا إلى أنه قد كان لكل قبيلة عيب فى النطق . اشتهر منه عجعجة قضاعة وهى جعلها الياء بعد العين جيما أو الياء المشددة مطلقا مثل قولهم الراعج فى الراعى ومرج فى مرى وطمطمانية حمير وهى جعل ام بدل ال وبلغتهم حديث « ليس من امبر امصيام فى امسفر » أى « ليس من البر الصيام فى السفر » وتلتلة بهراء وهى كسر أحرف المضارعة مطلقا وفحفحة هذيل وهى جعل الحاء عينا مثل العسن فى الحسن واللعم فى اللحم وعنعنة تميم كقولهم فى أن عن بابدال الهمزة المبدوء بها عينا وكشكشة أسد وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل عليش فى عليك وخلخانية الشحر كقولهم مشا الله واستنطاء أسد كقولهم أنطى فى أعطى بجعل العين الساكنة نونا مع الطاء وشنشنة اليمن وهى جعل الكاف شينا مطلقا نحو شلمنى فى كلمنى ولبيش فى لبيك وكقطعة طىء وهى حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحكا فى يا أبا الحكم كما فى لغة كثير من أقاليم مصر . هذا وقد أتى تهذيب اللغة فى أدواره المختلفة على أكثر هذه الهنوات إلا ما كان منها تابعاً لتأثير البيئة فقد بقى منه شىء حتى بعد ظهور الاسلام ولا يزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين . باللغات من جميع الامم المختلفة لاسبيل إلى تغييره إلا بالتخلص من المؤثرات القوية التى تنتجه كالانتقال من القرى إلى الامصار أو من أقليم إلى غيره كما هو مشاهد

اطوار تهذيب اللغة وأثر الاسواق فيه

اعلم أنه من غير المعقول أن تكون اللغة كما يقول بعضهم قد برزت اليناً من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة ومن المحقق أنها تقلبت فى أدوار مختلفة وأدهار طويلة تنازعها فيها ما يتنازع الاحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقى والانحطاط ومن العبث أن يتطاول انسان إلى تحديد الزمن

الذى تمثلت فيه اللغة بصورتها المروية لنا وكل ما يقال فى ذلك مراعي فيه تقريب هذه الحقيقة إلى التصور على وجه من وجوه تغليب الظن لاغير ومما لاشك فيه أيضاً أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها فى بعض ولاتحاد أكثر قبائلها فى كثير من دواعى المعيشة وأساليب الحياة ولما كان بينهم من الأواصر القوية فى الجنس وطبيعة البيئة والعادة وان ذلك مضافا إلى ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التى سنذكرها بعد قد أدى كله إلى تخلصها من الاختلافات ونقائها بالتدرج من الحوشية والغرابة وصيرورتها إلى درجة من الوحدة والعذوبة صلحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الاعجاز واشتملت على أعلى مراتب البيان والفصاحة ويرجح الباحثون أن من هذه الاسباب

(١) تنقيح اسماعيل عليه السلام وهو أصل العربية العدنانية كما سبق ولا يبعد أن يكون ذلك إلهاما إلهيا خص الله به نبياً من أنبيائه أو يكون ذلك على الاقل ناتجاً عما امتاز به ذلك الاب العربي عن سائر أهل عصره من سلامة الفطرة وقوة الذكاء وحسن الاختيار والتتبع مع ما يلحق بذلك من تطاول الزمن الذى هو وعاء طبعي لبلوغ الكائن الحى درجة من الكمال فى تدرجه إلى الارتقاء واقترن ذلك الوقت بظهور اسماعيل عليه السلام ثم درج العرب بعد اسماعيل على هذا السنن الفطرى من الانتقال فى مدارج النمو والتحسين وقد اشترك فى هذا التهذيب أكثر القبائل العربية إذ كانوا يأخذ بعضهم من بعض بالمخالطة والاجتماع فى أيام وقائعهم وعند تلاقيهم فى الانتجاع وخروجهم فى المنافرة إلى الحكام وحشدهم للمفاخرة بالاحساب والانساب وكان للشعراء من هذا الاصلاح نصيب لايقل عنه ما كان للاشراف من خطباء العشائر فى محاكاة العامة لهم واجتهادهم فى مساماة ألسنتهم حتى نشأ بينهم التنافس فى أحكام اللغة والمفاخرة بالبيان

(٢) وكان الدور الثانى هو استفحال نهضة قريش واستيلائهم على ذروة النفوذ الادبى والسيادة العامة فى جمهرة القبائل العربية وقد بينا فى بعض الفصول السابقة كيف صارت لغتهم إلى صفاء الفصاحة وأخذت بأطراف العذوبة وأقبل العرب يحاكونها ويمشون على أثرها حتى انتهى آخر ذلك الاصلاح القرشى بظهور الاسواق الادبية التى كان لقريش فيها أيضاً من الفضل مالها إذ كان العرب يرجعون إلى منطقهم ويتأثرون بعذوبتهم فيما يعدونه من القريض وما يحبرونه من الخطب التى يتحاكمون فيها إلى قضاة يصدرون عن رأيهم ويسمعون لحكمهم فى هذه الاسواق التى أشهرها عكاظ وهى موضع بين نخلة والطائف وأقيمت بعد عام الفيل بخمس عشر سنة وبقيت بعد الاسلام وان لم تكن فى شأنها الاول حتى نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة وكانت تقوم هلال ذى القعدة إلى عشرين منه ثم ينتقل العرب منها إلى مجنة وهى موضع قرب مكة بمر الظهران ثم الى ذى المجاز وهى سوق على فرسخ من عرفة فيكونون بها الى أيام الحج

وكان الاشراف من العرب انما يحضرون الاسواق القريبة من أحيائهم إلا عكاظ فانهم كانوا جميعاً يتوافدون اليها لمفاداة أسراهم والتحاكم فى خصوماتهم وللمفاخرة بالاحساب والتباهى بصفات الفضائل من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والاشعار والخطب وفيها أنشد عمرو بن كلثوم طويلته وقيل أنها علقت فى هذه السوق وسائر السبع الطوال كما ستبينه بعد وكان للنابغة الذبيانى قبة تضرب له يتحاكم اليه فيها الشعراء وقصته مع الاعشى والخنساء وحسان مشهورة وفيها خطب قس بن ساعدة الايادى خطبته المشهورة وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جمل له أورق [١] . وقد كان هذا

(١) الأورق من الابل مافيه بياض الى سواد وهو من أطيب الابل لحماً لاسيراً وعملاً

الاجتماع العام مظهراً جميلا من مظاهر الحضارة يقتضى طبعا تجويد المنطق وارهاف اللسان والمبالغة فى إتقان صناعة الكلام والاجتهاد فى مقاربة العذوبة فى لغة قريش التي لم يقتصر فضلها على حمل العرب فى جملتهم علي اتباع مناهجها والتأثر بأسلوبها بل كانت لاتزال تشهد هذه المواسم وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل فى هذا الدور الاخير من التهذيب حتى بلغت لغتها الى أرفع مراتب الكمال اللغوى فى هذا العصر

الخط العربى ونشأته

من المعلوم أن الكتابة من الصناعات الحضرية التى تلازم الملك وتقوم مع حضارات الامم المتمدينة ولذا لم تفش هذه الصناعة فى العرب إلا بعد ظهور الاسلام حين اجتمعت لهم أسباب الملك وصارت لهم دولة ذات قوة وسلطان وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من عمل على افشاء هذه الصناعة ونشر تلك المدنية الجديدة بين المسلمين بما فرضه على غير الاميين من أسرى بدر أن يفتدى الاسير منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة فشاعت هذه الصناعة وانتشرت بعد ذلك مع المسلمين فى أقطار الارض أما قبل الاسلام فقد كانت الجزيرة العربية عدا بلاد اليمن وبعض الجهات الشمالية منها خلوا من هذه الصناعة ينطق العربي من أهلها بالفاخر المهذب من الشعر والنثر ولا يقيم لسانه حرفا واحداً من حروف الهجاء ولا وجوه الاعراب وهم الاميون الذين بعث الله فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة قد ظلت فيهم هذه الآثار البدوية حتى بعد الاسلام فقد قيل لعربى منهم أتهمز اسرائيل . فقال انى إذاً لرجل سوء . فهم من الهمز العيب أو الضغط وسئل آخر أتجر فلسطين ؟ فقال انى إذاً لقوى . وقيل لبعض الاعراب وهو ينشد نحن بنى علقمة الاخيار لم نصبت بنى علقمة ؟ فقال ما نصبتهم لشيء « يريد ما عرضتهم لأمر » أما فى بلاد اليمن فقد قدمنا فيما

سبق أن المعينيين وهم من أقدم الامم الآرامية التي نزحت إلى هذه البلاد قد اقتبسوا الحروف الفينيقية وكتبوا بها وانتهت فيما بعد الى أسلافهم من السبئيين فالحميريين مع التنقيح والتجويد إلى الخط المسند أو القلم الحميرى كما أسلفناه ومن بلاد اليمن انتقل الخط مع كندة وهم بطن من كهلان حين هاجروا إلى إلى ديار معد وانتقل أيضا الى النبط وهم جيل عربي كان فى بلاد مدين وسينا وفلسطين وحوران قبيل الميلاد وبعده ومن كندة والنبط تعلمه أهل الحيرة والأنبار ونقله باجماع المؤرخين إلى مكة حاضرة الحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام بقليل قيل أنه تعلمه من بشر بن عبد الملك أخى أكيدرصاحب دومة الجندل الذى قدم معه إلى مكة وتزوج بنته الصهباء وعلم عدداً من أهلها الكتابة منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وطلحة وأبو عبيدة ومعاوية بن أبي سفيان ويتلخص من ذلك أنأقدم حلقة فىسلسلة الخط العربي هى الخط المصرى القديم ثم منه أخذ الفينيقى (١) ومن الخط الفينيقى أخذ الخط الآرامي الذى منه المسند ومنالمسند تولد النبطىوالكندى ومن هذين الانبارى والحيرى ومنهما تولد الخط الحجازى . والخط الحيرىهو بعينه الذى يسمى بالخطالكوفى بعد بناءالكوفة إلا أنأهل الكوفة اخترعوا فيه حليةوزخرفا كالتى استعملها السريانيون فى خطهم المعروف بالسطرنجيلى وانما كانوا يكتبون بهذا الخطالمزخرف كتبالدين ويزينونبه المعابدونحوها أما الرقاع وما شاكلها فكانت تكتب بالخط الحيرى العادى المعروف بالنسخى وهذه خلاصة مايقالفى تاريخ الخط العربى ونشأته قبلالاسلام وهى مقتبسة

---

(١) ويرى بعض الباحثين أن الخط الفينيقى أصل مستقل وليس مشتقا من غيره ويظهر أن هذا الرأى لايستند الى دليل أكثر من الاستنتاج الشخصى الخاص بقائله

من كتاب تاريخ الادب للمرحوم العلامة حفنى ناصف ومن شاء زيادة العلم فليرجع إلى ذلك الكتاب فهو من أوفى ما كتب فى هذا الباب

معارف العرب فى الجاهلية

يحقق الباحثون أنه كان لسكان الشمال من الغسانيين والمناذرة ولسكان اليمن من التبابعة حضارات متناسبة مع دولهم التى أسسوها وأنهم كانوا على علم بهندسة أرواء الارض وعمارة المدن والطب والحساب والزراعة وبيطرة الدواب وان لم ينقل الينا شىء كثير من آثار ما أسسوا من الملك وما خلفوا من الحضارة

أما سكان الجزيرة وهم جمهرة العرب العدنانية فقد كانوا كغيرهم من الامم البدوية لايحذقون كثيراً من العلوم ولا ينشطون لمزاولة الصناعات إلا ما ألجأتهما اليه ضرورة الحياة واهتدوا اليه من طريق التجربة الصادقة والمشاهدات المتكررة. ولم يعرف أنهم خلفوا شيئاً من آثار المدنية العقلية أفضل من الشعر الذى هو ديوان علمهم ومستودع مفاخرهم والحافظ لأيامهم وعاداتهم وعقائدهم وأكثر مظاهر حياتهم الاجتماعية وكل ما وصلوا اليه بعد ذلك من أسباب العلوم انما كان مبنيا على قوة النظر وصدق الحس ومستمداً من التجربة حينا ومن مخالطة من كان يجاورهم من الامم حيناً آخر فمن ذلك مثلا علم النجوم فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً إلى إدمان النظر فى كواكبها وتعرف صورها وألوانها ومطالعها وأنوائها وتوصلهم بذلك إلى معرفة زمان الخصب والمحل وأوقات الرياح والمطر واهتدائهم فى ظلمات البر والبحر وهم مدينون بشىء غير قليل من علم النجوم أو الفلك للكلدانيين (بقايا كهنة بابل القديمة وكانوا يسمونهم الصابئة وهم عبدة الكواكب) ولا يزال كثير من أسماء

البروج والكواكب فى اللغتين متقاربا أو متحداً فمن أسماء البروج مثلا الثور فى العربية وهو (ثوراً) فى الكلدانية والسرطان وهى كذلك أيضاً فى الكلدانية والجدى فى الكلدانية « كديا » ومن الكواكب المريخ فانه يقابل مرادخ فى الكلدانية بلفظه ومعناه ونري فى كلام العرب وأشعارها كثيراً من أسماء الكواكب كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والنثرة والعيوق وغير ذلك مما يدل على قدم معرفتهم بذلك على النحو الذى بيناه لك .

ومما عرفوا بعضه بالتجربة وبعضه من الأمم المجاورة لهم كالفرس مثلا « علم الطب » واذا قلنا علم الطب لا يتبادر إلى الاذهان أنه كان علما بالمعنى المفهوم منه الآن بل لم يكن يتجاوز عندهم الكى بالنار وبتر الاعضاء بالشفار المحماة والتداوى بشراب العسل وعصارات بعض العقارات النباتية وكثيرا ما كانوا يتداوون بالعزائم والرقى واشتهر بذلك العرافون والكهان وكانوا يعالجون الحول بادامة النظر إلى حجر الرحى فى دورانه ومن خرافاتهم فى العلاج أن المجروح إذا شرب الماء فاضت نفسه واذا ذعرت المرأة من شىء حتى يزد قلبها سقوها ماء حاراً ومن المشهورين فى هذه الصناعة ابن حذيم وهو رجل من تيم كان يقال فيه أطب من ابن حذيم ومن أحدث أطبائهم الحرث بن كلدة الثقفى المتوفى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو من الطائف قيل أنه رحل الى بلاد فارس وهناك تعلم الطب ثم رجع وكانت له شهرة واسعة وكان النبى صلى الله عليه سلم و يأمر من تناله علة من أصحابه أن يأتيه ويستوصفه . وفى اللغة العربية من أسماء العلل ووصف الاعضاء الظاهرة والباطنة فى الانسان والحيوان ما يدل على مبلغ ما وصلوا اليه

ومن المعارف التى توصلوا اليها بقوة الذكاء وكثرة المزاولة الفراسة والقيافة والاولى هى الاستدلال بهيئة الشخص وكلامه وظاهر أعضائه على أخلاقه وصفاته والثانية ضرب من الفراسة تعين عليه قوة الخيال كالاهتداء بآثار

الاقدام إلى أصحابها ولقد بلغوا فى ذلك من الاعاجيب إلى مالا يكاد يصدقه العقل . إذ كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والأعمى والبصير والمثقل والمخف وان شيئا من ذلك لايزال باقياً بين البدو من سكان مصر إلى اليوم وقد اشتهر من القافة فى العرب بنو لهب وبنو مدلج كما اشتهروا أيضا بالزجر ولهم يقول الشاعر

خبير بنو لهب فلا تك ملغياً   مقالة لهبي إذا الطير مرت

وقد كانت قوة الحافظة التى أدى اليها انتشار الأمية داعية إلى تفوقهم فى علم الانساب الذى كانوا يعرفون به القرابات ويحفظون الاحساب والأصول فلا يدخل رجل فى غير نسبه ولا يدعى لغير أبيه دعاهم إلى ذلك أيضا شدة حاجتهم الى الاعتزاز بالعشيرة والانتصار بالعصبية لتفرق قبائلهم وكثرة حروبهم ومن نسابيهم دَغْفل بن حنظلة الشيبانى وزيد بن الكَيِّس النَّمَرى وابن لسان الحُمَّرَة . ومراتب النسب عندهم من الادنى إلى الأعلى هى الفصيلة فالفخذ فالبطن فالعمارة ثم القبيلة ثم الشعب وهو الأب الأبعد كعدنان أو قحطان مثلا فالفصيلة كبنى أبى طالب وبنى العباس والفخذ مافوق هؤلاء من بنى هاشم وبنى أمية والبطن كبنى عبد منـاف وبنى مخزوم والعمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة ثم القبيلة وهى ما تعددت فيها أنساب الشعب كربيعة ومضر

وكانت الكهانة والعرافة وما الى ذلك من العيافة والزجر والطرق بالحصى وقد تكون الكهانة فى تعرف الغيب من الأمور المستقبلة والعرافة فى مثل ذلك من الاحوال الماضية وكان لهم اعتقاد صحيح فى كهانهم وكواهنهم فكانوا يستطبونهم فى الأمراض ويستقضونهم فى الخصومات ومن أشـهر كهانهم سَطيح الذئبي وطريفة الخير امرأة عمرو بن عامر وهو مزيقيا أحد

ملوك اليمن ومن العرافين الابلق السعدى وهو عراف نجد ورباح ابن عجلة وقد شهرهما عروة بن حزام ببيت قاله وهو : —

جعلت لعراف اليمامة حكمه　　وعراف نجد إن هما شفياني

وكانت الكهانة والعرافة أيضا معروفتين عند غير العرب من الأمم القديمة كالمصريين والكلدانيين واليهود وغيرهم ولا يزال من أثرها بقية فى بلادنا إلى اليوم من أولئك الدجالين الذين يعرفهم كثير من العامة وخاصة النساء

أما بصرهم بالخيل ومعرفة شياتها وأوضاحها وعتقها وما يستحب من أوصافها وما يذم منها وما يتعلق بذلك من انتاج وبيطرة فقد فاقوا فيه سوائم من الأمم وقد اشتهر من بياطرهم غير واحد منهم العاص بن وائل وظلت هذه المعرفة تنتقل من بقايا البدو الى اليوم وقد تراهم فى بلادنا لايزالون من أعرف الناس بمداواة الخيل وقد عقد الألوسى فى كتابه بلوغ الأرب فصلا فى هذا الموضوع أتي فيه على كثير من أوصاف الخيل وعيوبها فى الجزء الثالث نقله عن كتاب الخيل لأبى عبد الله الاسكاف

وأما علمهم بالتاريخ والاخبار فقد وقع لهم فيه ماوقع لغيرهم من الأمم القديمة من الدس والتحريف الا ماتظاهرت الروايات على صدقه كقصة الفيل وكأكثر أيامهم المشهورة كحرب البسوس ويوم ذى قار وغيره من الوقائع المشهورة

ايام العرب ذوات الأثر فى اللغة

كانت العرب العدنانية كما قدمنا بدواً أميين قد تأصلت فى نفوسهم طبائع البدو من النجدة وحب الغزو والميل الى الانتقام والاخذ بالثأر وكان العربى منهم حين يفتح عينيه لايرى إلا تألق الأسنة ولا يسمع الا صهيل الخيل

وزئير الوحش ولم يكن لهم حمى يلجئون اليه الا ظهور خيلهم ومقابض سيوفهم فرسخت فيهم صفات الفروسية وقوة المراس وكثر الفتك والنهب وما كان لهم مقام بأرض وانما كانوا يبتغون الماء ويرتادون منابت العشب ليرعوا أنعامهم التي عليها بلاغهم في حولهم وشبعهم وريهم فتنازعوا على المرعى وتدافعوا على النجعة ونشبت دواعي الخلاف التي كانت كثيراً ماتنتهي بالاحتكام الى السيف فانتشرت بينهم العداوة وفشت فيهم الحروب وتخطف بعضهم بعضا واحتمت بعض قبائلهم بالحلف وبقيت بعض القبائل الاخرى متجمرة في نفسها معتزة بعصبيتها وكان هذا أهم الاسباب التي أدت إلى هذه الايام أو الغارات المشهورة التي سنذكر منها أهم ماله علاقة بتاريخ الادب مما يكون اشتمل على خطبة لشريف أو قصيدة لشاعر مما يقال عادة عند أول التعبئة لاستفزاز الحمية واثارة الحماسة للاستبسال في القتال . ومن هذه الايام « حروب ربيعة » التي أشهرها حرب البسوس وكانت بين بكر وتغلب وهاجها مقتل كليب بن ربيعة . ذكر صاحب العقد الفريد أن كليبا هذا قاد معدا كلها يوم خزازى[1] ففض بهم جموع اليمن وهزمهم وخلصت معد من ولاية التبابعة يومئذ فاعترفوا لكليب بالسيادة عليهم وأعطوه قسم الملك وتاجه وعبر بذلك حينا من دهره حتى أدخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدله حتى كان تحمى مواقع السحاب فلا يرعي حماه وضربت العرب بعزته المثل فقالوا « أعز من كليب » واتفق أن مرت ابل له الى موردها بناقة البسوس بنت منقذ التميمية وهى خالة جساس بن مرة من بكر وكانت جارة له فلما رأت الابل نازعت عقالها حتى قطعته ووردت معها الماء ورآها كليب فرمي ضرعها بسهم وراحت ترغو على صاحبتها فخرجت الى جساس فأحسته بكلامها حتى خرج الى كليب وهو غار فقتله ووقعت الحرب وتشمر عدى بن ربيعة وهو مهلهل للأخذ بثأر أخيه وكرهت قبائل بكر مساعدة بنى شيبان رهط جساس

(١) خزازى — كجبال موضع كانوا يوقدون عليه نارا غداة الغارة

وأعظموا قتل كليب فى ناب من الابل وانقبض الحارث بن عباد فارس النعامة فى أهل بيته (وهو أبو بجير أو عمه) وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة على مايقول الرواة وكانت فيها الغارة بين الرجلين والثلاثة ، وكان أعظم أيام تغلب على بكر يوم الذنائب الذى ذكره مهلهل فى قصيدته التى مطلعها

أليلتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى

ويقول فيها .

فان يَكُ بالذَّنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
فلو نُبِشَ المقابرُ عن كليب ليُخْبَرَ بالذنائب أىُّ زير
كأنَّا غُدوةً وبنى أبينا بجنب عنيزةٍ رَحيا مُدير
وانى قد تركت بواردات بُجَيْراً فى دم مثل العبير
هتكت به بيوتَ بنى عُبَاد وبعضُ القتل أشفى للصدور
على أن ليس عِدْلاً من كليب إذا برزت مُخَبَّأَةُ الخدور
ولولا الريحُ أُسْمِعَ مَنْ بحجر صليل البيض تُقْرَعُ بالذُّكور

قالوا ولما بلغ الحارث بن عباد قتل ابنه بجير قال نعم القتيل قتيلا أصلح الله به بين ابنى وائل فقيل له ان مهلهلا حين قتله قال « بؤ بشسع نعل كليب » فغضب الحارث وأحمسته بكر لذلك ولاسراف مهلهل فى قتلهم فتولى الحارث أمر بكر وأوقع بتغلب فى يوم قضه وهو يوم تحلاق اللمم وأسر مهلهلا وهو لايعرفه ثم أطلقه وفى ذلك يقول الحارث حين تجهز لهم أبياته المشهورة التى أولها

قَرِّبا مَرْبطَ النعامة منى لَقِحَتْ حربُ وائل عن حِيَال
لم أكن من جُناتها علم الله وإنى بِحَرِّها اليوم صَال
لا بُجيرٌ أغنى قتيلا ولا رهط كليب تزاجروا عن ضلال
يابجير الخيرات لاصلحَ حتى أملأ السَّهلَ من رءُوس الرجال

روى صاحب الأغانى عن رواته . . .

قالوا لما قتل كليب اجتمع نساء الحي للمأتم فقلن لأخت كليب رحلي جليلة عن مأتمنا فان قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ، فقالت لها ياهذه أخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهي تجر أعطافها ، فلقيها أبوها مرة فقال لها . ماوراءك ياجليلة ؟ فقالت . ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد ، فقال لها أبوها أو يكف ذلك كرم الصفح واغلاء الديات ؟ فقالت .

أمنية مخدوع ورب الكعبة ، أبا لبدن تدع لك تغلب دم ربها ؟ قالوا ولما رحلت جليلة . قالت أخت كليب رحلة المعتدي وفراق الشامت . ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة . فبلغ قولها جليلة فقالت وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها . أفلا قالت . نفرة الحياء . وخوف الاعتداء ثم أنشأت تقول (وهو من أبرع ماقيل في معناه)

يَابْنةالاقوام ان شئتِ فلا	تَعجلي باللوم حتى تسألي
فاذا أنت تبيَّنت الذى	يُوجِبُ اللوم فلومي واعذلي
ان تكن أخت امرىء ليمت على	شَفَقٍ منها عليه فافعلي
جلٌّ عندي فعلُ جساس فيا	حسرتي عما انجلت أو تنجلي
فعلُ جساس على وجدي به	قاصمٌ ظهري ومُدنٍ أجلي
يانتيلا قوّض الدهرُ به	سَقفَ بيتيَّ جميعاً من عَلِ
هدم البيتَ الذى استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الأول
يانسائي دونكن اليوم قد	خصّني الدهرُ برزءٍ مُعضِلِ
خصّني قتلُ كليب بلظى	من ورائي ولظى من أسفل
ليس من يبكي ليومه كمن	انما يبكي ليوم مقبل
يشتفي المدركُ بالثأر وفي	دركي ثاري ثكلُ المُثكَلِ

انــى فاتلةٌ مقتولة ولعل الله أن يَرْتاحَ لى

ومن هذه الحروب حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان « وداحس فرس[1] لقيس بن زهير العبسى والغبراء حجر لحمل بن بدر » وكان الذى هاجها أن قيسا وحملا تراهنا على فرسيهما وجعلا الرهان مائة بعير للسابق منهما ثم قاداها الى رأس الميدان بعد أن أضمر وهما أربعين ليلة وفى طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن حمل بن بدر فى تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين وأمرهم ان جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية ثم أرسلوا الفرسين فلما شارفا الغاية وهى ذات الاصاد (اسم لقليب بين هضب فى ديار نجد) برز داحس فوثب الفتية فلطموا وجهه فردوه عنه وتشاحن قيس وحذيفة أخو حمل بن بدر على السبق ثم دفعه حذيفة الى قيس وسكن الناس ثم بدا لحذيفة بعد ذلك وندّمه الناس فأرسل أبناله يسترد السبق من قيس فقتله وأوشكت الحرب أن تقع ولكن القوم اجتمعوا فاحتملوا ديته الى حذيفة وسكنوا الى أن استفرد حذيفةُ أخاً لقيس هو مالك بن زهير فقتله فقامت الحرب وعاد الربيع بن زياد العبسى الى قومه وكان بينه وبين قيس بن زهير شحناء فتصالحا واجتمعا على قيادة عبس فى هذه الحروب ، والى هذا السبب يشير قيس بقوله :

ألم يأتيك والانباءُ تَنْمي	بما لاقت لَبونُ بنى زياد
ومَحْبِسُها على القرشى تُشْرَى	بأدراع وأسياف حِدَاد
كما لاقيتُ من حَمَل بن بدر	وأخوته على ذات الاِصاد
هُمو فخروا على بغير فخر	ورَدّوا دون غايته جَوادى

وكانت بينهم أيام كثيرة من أشهرها يوم المريقب من أرض الشربة فى ديار غطفان وهو لعبس على ذبيان وفيه قتل عنترة الفوارس ضمضما المرى

---

(١) وفى بعض الروايات أن الفرسين لقيس وأن الفزاريين أجروا معهما فرسين لحذيفة بن بدر هما الخطار والحنفاء

وهو القائل يتوعد ابنيه حصينا وهرما ويلغه أنهما يشتمانه وينذران دمه

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين اذا لم القهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

ثم يوم ذى حسى وهو واد من أرض الشربة وهو لذبيان على عبس ثم يوم الهباءة ويسمى أيضا يوم جفر الهباءة (والجفر البئر الواسعة أو هى مستنقع فى ديارهم) وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا بدر الفزاريان وعظم عند الناس قتل حذيفة وتفاقم الامر وطالت على الحيين الحرب حتى ملوا فسعى بعض الاشراف بينهم بالصلح وتقدم الى ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان أبى حارثة المرى فاحتملا ديات القتلى فى أموالها وسكنت هذه الحروب التى دامت زمنا طويلا وإلى هذا أشار زهير فى معلقته بعد ما حض على السلم وعظم من رزايا الحرب قال

لعمرى لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيانُ بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(ومنشم امرأة عطارة فى الجاهلية ذكروا أن قوما خرجوا فى حرب فمسوا طيبها فانهزموا وقتلوا فتشاءم الناس بها)

وفى الاغانى فى ترجمة زهير بن أبى سلمى أن الحارث بن عوف هذا رحل الى أوس بن حارثة بن لام الطائى يخطب عليه احدى بناته فرده ثم لامته امرأته فعاد الى الحارث فاعتذر اليه وزوجه من صغرى بناته بهيسة بعد أن عرض أمره على اختيها فأبتاه وانه اراد ما عند أبيها فمنعته ثم نازعها الى نفسها فى الطريق الى حيه فردته أيضا حتى رجع بها الى قومه فأولم لها ودعا الناس ثم دخل اليها . قالوا فقالت له أتشتغل بالنساء والعرب يقتل بعضهم بعضا وذلك فى آخر أيام داحس والغبراء فخرج فأصلح بين الحيين مع سنان بن أبى حارثة أو هرم ابنه على ماهو مروى ونحن نرجح الا يكون هذا هو السبب فيما خلده الحارث لنفسه من هذا الا كرومة

ولقيس بن زهير شعر يرثى به قتلى الهباءة ولعله أول من فعل ذلك بمقتوله وهو قوله .

تعلم أن خيرَ الناس ميتاً على جَفْر الهَبَاءة ما يَرِيمُ
ولولا ظلمهُ مازلتُ أبكى عليه الدَّهرَ ما طلعَ النجوم
ولكن الفتى حملَ بنَ بدرٍ بغى والبغيُ مَرْتَعهُ وخيم
أظن الحلمَ دل عليَّ قومي وقد يُستَجهَلُ الرجلُ الحليم

وكان قيس بن زهير سيداً داهياً ويسمى قيس الرأى وهذه الحروب من حروب مضر

ومن أيام العرب الفجار وهى أربعة أفجرة ، وكانت قريش ومن معها من كنانة على هوزان فى هذه الايام وكان أهمها الفجار [١] الرابع وهاجه قتل البراض الكناني عروة الرحال لوجير لطيمة النعمان بن المنذر (وهى عير عليها قطف وتمر كان يرسلها النعمان إلى أسواق العرب تباع له ويستبدل بها مما فى هذه الاسواق من أدم ومتاع) وكان عروة سيدا مطاعا والبراض خليعا ليست له نباهة ولا

---

(١) وقد كان بعض هذه الايام على قريش وأحلافها وبعضها لها على هوازن وهو يوم عكاظ والى ذلك يشير ضرار بن الخطاب الفهرى بقوله :

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يثبت الامر كالخابر
غداة عكاظ اذا استكملت هوازن فى كفها الحاضر
وجاءت سليم تهز القنا على كل سلهبة ضامر
وجئنا اليهم على المضمرات بأرعن ذى لجب زاخر
فلما التقينا أذقناهم طعانا بسمر القنا العاتر
ففرت سليم ولم يصبروا وطارت شعاعا بنو عامر
وفرت ثقيف الى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

ولغير ضرار شعر فى هذه الحرب اكتفينا هنا منه

شرف وقد شهد النبي بعض هذه الحروب قال النبي صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامي وأنا ابن أربع عشرة سنة وقيل أكثر من ذلك (يعني ينا ولهم النبل) وانما سميت هذه الايام الفجار لأنها وقعت فى الاشهر الحرم وهى عندهم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وكانوا يتناهون فيها عن الثأر والحرب

ومن حروب الاوس والخزرج وهم سكان يثرب أو المدينة أنصار النبي صلوات الله عليه فى الاسلام يوم بعاث وهو أعظم أيامهم (وبعاث فى ديار بنى قريظة من اليهود وفيه مزرعة لهم تسمى قورى وكان ليهود يثرب من بنى النضير وبنى قريظة شأن يذكر فى اعانة الاوس على الخزرج بسبب غدر عمرو بن النعمان البياضى برهائن اليهود التى كانت عند الخزوج على ألا يعينوا عليهم أخوتهم من الاوس

وكانت الرؤساء يومئذ حضير الكتائب الاشهلى على الاوس وكان أمرهم قبل ذلك الى أبي قيس بن الاسلت الوائلى وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى وفى هذا اليوم انهزمت الخزرج وأصابت حضير الكتائب جراحات شديدة مات متأثرا بها بعد ذلك اليوم فقال خُفاف بن نَدبه يرثيه وكان صديقا له فى الجاهلية

أتاني حديث فكذبته وقيل خليلك فى المرمس
فياعين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد أوار الحـــديد تقطع منه عرا الانفس
فأودى بنفسك يوم الوغى وتقى ثيابك لم يدنس

وكان هذا اليوم قبيل الهجرة بنحو خمس سنين

ومن الحروب التى وقعت بين العرب وغيرهم يوم ذى قار وهو ماء قريب من البصرة وكان بين العرب والفرس وهو أعظم أيامهم وكان سببه على مايذكر الرواة أن كسرى استقدم اليه النعمان بن المنذر فى المدائن ثم غدر به وقتله وفى

ذلك اليوم خطاب هانىء بن قبيصة الشيباني يحرض قومه بكراً على القتال بقوله :

« يامعشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور . المنية ولا الدنية استقبال الموت خير من استدباره وإن الصبر من أسباب الظفر . قاتلوا فما للمنايا من بد » وكان هذا اليوم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر به أصحابه فى حديث مروى (ان هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا)

وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا اليوم ومن ذلك قول الاعشى من قصيدة

لو أن كل معد كان شاركنا   فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم   ملنا ببيض لمثل الهام تختطف

بطارق وبنو ملك مرازبة   من الاعاجم فى آذانها الشنف

كأنما الآل فى حافات جمعهم   والبيض برق بدا فى عارض يكف

ما فى الخدود صدود عن سيوفهم   ولا عن الطعن فى اللبات منحرف

وللعرب غير ما ذكرنا أيام كثيرة يطول علينا استيعابها وقد استوفى معظمها صاحب العقد ومنها فى كتب الامثال والاغانى وابن الاثير شىء كثير فليرجع اليه من أراد

وقد كانت هذه الحروب كما قدمنا من أعظم المواطن التى تهيج فيها النفوس بالشعر للتحريض على القتال وللنوح على القتلى والافتخار بالانتصار والشعر كما يقولون يوحيه الحب والحرب والموت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

النثر الجاهلى والشعر

وايهما اسبق من صاحبه

من حق هذا البحث أن نصدره بكلمة موجزة عن الشعر لانعرض بها مذاهب العلماء فيه ولا لاختلافهم فى تحديد معناه فان لذلك موضعه من هذا الكتاب . ولكن شيئا له خطره من خصائص الشعر هو الذى نعرض بهذه الكلمة للقول فيه وهو ما اجمع العلماء عليه منذ عرف ذلك الكلام المنظوم فى لغات الانسان وذلك أنهم متفقون جميعا على أن يكون لهذا النوع الرفيع من الادب لغة خاصة ممتازة . وعلى أن تكون هذه اللغة بحيث تتسع جوانبها لمطارح الخيال الشعرى وتنهض مادتها بكفاية الشاعر المتخير للفظ الكريم والقول الجزل . وعلى أن يكون له فى الجملة حظ من الجمال الفنى غير يسير وهو عندهم كالغناء والتصوير . ويشبهون بناظم الدر ناظم الكلام . فلا جرم كان الشعر بهذا الاعتبار (والعرب لاتعرفه الا متحليا بايقاع الوزن ومسلوكا فى نظام القافية) يعد حضارة فى اللغة . وزينة فى بيان المنطق وحلية حادثة فى الادب واذا ليس من المعقول أن يكون الشعر خطر فى هذه الحلة هكذا على ظهر الزمان قبل أن يكون النثر المتحرر من هذه القيود قد ذهب مذاهبه وأخذ من الحياة حاجته ولكن رأيا جديدا لمحض الخلاف على الناس يزعم صاحبه أن هذا الشعر مشى على قدميه فى الامم القديمة ومازال كذلك يمشى قدما فى الامم الحديثة قبل أن يتخلق النثر وقبل أن يولد بأدهار طوال . ثم يعود فيخفف من هذه الغلواء بأنه يعنى ذلك النثر الأدبى الذى يظهر فيه أثر التعقل . وعمل الروية ويتصل بذلك الجمال الفنى الذى يعمد به صاحبه الى التأثير فى النفوس وكأن الشعر عنده وله ماله مما أسلفنا آنفاً محروم من أثر التعقل فارغ من تدبير

الروية وليس فى شىء من قوة التأثير ولا جمال الفن وهذا ضرب من لغو الحديث قامت فيه هذه الفكرة على أوهام ثلاثة

أحدها : هذه الدعوى بأن الأمم القديمة والحديثة تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف هذا النثر بزمن طويل ويوشك أن يكون هذا النثر الأدبي لم يوجد إلا حين شيعت فى الناس هذه الظاهرة الصناعية التى يسمونها الكتابه . وهذه الدعوى قد لاتدل على شىء أكثر من أن النثر فى هذه الأمم القديمة ذهب مع أنفاس المتكلمين به فى طيات الفضاء ولم يتوفر له من عناية الحفاظ ونقل الرواة مثل ما توفر للشعر لكثرته ولسرعة تبدده فى الاسماع وشدة المؤونة فى حفظه على الناس والامر ليس كذلك فى الشعر لما فيه من الف المداخلة للنفوس والموافقه للطباع ولما له من مشاكلة النغم وتوافق الجرس وحلاوة الايقاع والوزن ولأنه أدب منظوم وما زال المنظوم من كل شىء أمتع للنفس وأحلى على القلوب من المنثور من جنسه واذا تأملت رأيت النظام هو سر الجمال فى مظاهر الوجود حتى فى الجماد والحجر

ونحن مع هذا ان لم تدعنا الجرأة الى الحكم على أدب الأمم الأجنبية القديمة والحديثة نستطيع أن نجعل العرب أنفسهم مقياساً لهذه الأمم إذ كانوا شركاءهم فى هذه الموهبة التى لاتختلف فى جوهرها فى بعض هذه الأمم عن بعض ونحن نعلم أن العرب فى صدر الاسلام وسعت لغتهم هذين الادبين ودانت فنونها لجهابذة الكلام ومصاقع الخطباء وسفرت محاسنها لخيال الشعر . وتتابعت عصور الأدب من أموية وعباسية الى وقتنا هذا وهى حافلة بكبار الكتاب وفحول الشعراء : والادبان متعاصران وللشعر قوم يسيرونه فى الآفاق وللأدب المنثور آخرون يذيعونه فى الناس . وفى مصر وغيرها من الاقطار العربية الكتاب والشعراء متطاردون فى حلبة الأدب كفرسى رهان وما علمنا أن جيلا من هذه الاجيال تغنى ونظم الشعر ثم مضت به الدهور حتى استطاع أن يقول

النثر المحبر والكلام المأثور

وبعد فقد نزل القرآن بلغة قريش وجرى على المألوف من أفصح الاساليب العربية فهل كان الذى بهر العرب من بيانه وأعجزهم عن معارضته أنه فاق فى أعينهم ما كانوا يتبادلونه من الاحاديث المبتذلة والعبارات المقتضبة ولم يكن فيهم جدل ولا لهم بيان مهذب أو أدب ممتاز

وأى فضل يبقى للقرآن بعد أن يكون انما يوزن بهذه اللغة الضائعة فى تضاعيف الحديث المبتذل فى شئون الحياة التى تتكرر مع الانسان فى الاصباح والامساء ألا انما عارض القرآن هذه العارضة القوية وتحدى ذلك البيان المأثور فى بلاغات الخطباء ومساجلة الخصوم ومقارعة أهل الجدل من قوم كان الكلام سيد عملهم وأفضل صناعة فى أيديهم فعجزوا والعدة حاضرة والشمل مجتمع وكذلك تكون معجزات الانبياء من جنس الصناعات الشائعة فى أزمانهم كالسحر فى آل فرعون والطب فى بنى اسرائيل وهذا البيان فى العرب ليكون العجز من المعارضين مع فضل القدرة والتعاطى لهذه الصناعة دليلا على صدق النبوة وذريعة دافعة إلى الاذهان

الثانى : ومن الاوهام التى بنيت عليها الفكرة القول بأن الشعر حين ضاقت أوزانه بمظاهر العقل الانسانى دعا ذلك الى التحلل من هذه القيود وارسال الكلام منثورا متعملا على مايدعو الطبع وتمس اليه الحاجة ومعنى ذلك أن الناس كانوا أولا يشعرون ثم أنه لما خرج العقل من سذاجته وانبسطت آثار القرائح على ألواح الكون عاد الناس نتفككوا من هذه القيود والاوزان أى أن اللغة حين فارقت دور المحاكاة والاشارة تماسك لها قوام لفظى مداه أن يقوم بالتفاهم الضرورى للحياة دب اليها الشعر بأوزانه وقوافيه . وما أشبه هذا القول بمن يزعم أن الانسان كان يسكن البيوت ويحتجز دون الاسوار ويعتقل بالآطام والحصون وكانت له حدود وأوزان

من النظام الاجتماعى دعاه تعقله الواسع بعد ذلك الى أن يأنف من هذا الضيق وينطلق من تلك الاسوار ويطأ ذلك النظام الاجتماعى فيغور فى الصحراء ويتطرح على مجاهل الارض ويخسف الله به فيعود من كمال الى نقص ومن نظام الى فوضى والاستدلال على فساد هـذا الوهم لعب بالافهام واضاعة للنفيس من الوقت

الثالث : القول بأن فى البيئات المنحطة وفى أقاليمنا المصرية من ينظمون الشعر بلغاتهم العامية وهم لايحسنون شيئا من هذا النثر الا اذا أخذوا بحظ من التعليم وهذه أيضا مشاهدة ناقصة إذ أن الذين يلابسون العامة ويداخلون أهـل القرى يعرفون فى لحن كلامهم أن منهم من هو سمح اللفظ قريب الاعراب له قصص وله فصاحة على قدرة فى عاميته كما أن منهم الفدم الجافى الذى يعيا بالابانة عن أهون مافى نفسه من المعاني هذا وذاك يوجدان فى العامة كما يكونان فى الخاصة . ومن قال أن فطرة الشعر أو طبع الأدب وقف على فئة من أجناس الناس دون فئة وانها لاتكون الا فى الخاصة دون العامة وفى المتعلمين دون الجهلاء انها كما توجد فى هؤلاء توجد فى أولئك لانها خلقة موهوبة أو ملكة متوارثة وماهو الا أن تأخذ لسان هذا الجاهل الذى يظهر منه شعور الشعر أو فصيح المنثور العامي فتضعه على فصيحة غير عاميته حتى يخرج منه الشاعر أو الكاتب المضارع للفحول المقدمين من الشعراء والكتاب وليس الادب هو الشعر وحده وانما هو هذا الطبع الذى يكون فى أحد من الناس شعراً وفى غيره انشاء وترسلا ومن الناس من يوهب فطرة الشعر فهو دهره لايحسن أن يكتب وان فعل جاء له من النثر المتكلف أو المسجوع مالا يكون شعراً ولا يبلغ أن يكون نثراً مطبوعا ومنهم من هو منشىء ومترسل فهو أبدا كاتب أو خطيب ولا يحسن أن يكون شاعرا ويندر جدا أن يجمع الواحد بين الموهبتين وتستوى بلاغته فى الادبين فطرة الله التى فطر الناس

عليها . والقول الفصل فى هذا الموضوع أن ظهور الشعر فى الأمم القديمة لاينبغى أن يحمل فى جملته على شيء أكثر من أنه هو الذى وعته الصدور وتوارثته الاعقاب وظفر من عناية الحفاظ وتناقل الرواة بما لم يظفر بشيء من مثله النثر فضاع على كثرته ولم يبق منه الا قليل يوشك أن يكون شيئاً لايذكر بجانب ماحفظ من الشعر لما بيناه ولمكان الامية عندالعرب خاصة وعند أكثر الأمم القديمة عامة وهذا بعينه لايزال شأن الشعر والنثر حتى فى العصور التى فشت فيها الكتابة وتوافرت آلات التقييد والحفظ فخطباء العرب وكتابهم فى صدر الاسلام وفى سائر العصور العربية وفى عصرنا هذا لايجد كلامهم من حظ العناية وحرص الناقلين مايجد الشعر من ذلك وهم على هذا عماد الملوك وضباط الجبايات ووزراء الدواوين وطلائع الانقلابات فى كل أمة وفى كل عصر والتاريخ أعدل شاهد أما أن يكون الناس قد وقع لهم فى منثورهم قديما مايشبه الشعر فى لطف خياله وحسن تصويره فلا يزال هذا من الأدب المنثور كما قال حسان لابنه [1] وكما قيل لبشار فى أبياته فى المشورة تقريظاً لكلمته (ان المشاور بين صواب يفوز بثمرته أوخطأ يشارك فى مكروهه) أنت فى هذا أشعر ودعوى المجازفين بهذا الفرض أنهم انما يقصدون بالنثر صناعة الكتابة تعتبر هربا من التحقيق وفرارا من اقامة الدليل إذ لا خلاف بين الناس فى أن النثر بهذا المعنى متأخر فى الظهور عن الشعر على أن بعض كبار المستشرقين من علماء الألمان كجلد زهر وبروكلمان على الرأى القائل بأن السجع كان المرحلة الأولى التى عبرها النثر الى الشعر عند العرب كما سيأتى

---

١ وكان قد لسعته نحلة أو نحوها وجاء أباه يبكى فاستوصفه ما أصابه فقال كأنه ملتف فى بردى حبرة فقال له شعرت يابنى وكما قال لبيد لابنته حين قالت للوليد أمير الكوفة فيما ردت به من أبياتها عن أبيها

فعد ان الكريم له معاد وظنى يا بن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها أحسنت يابنية لو لا أنك استطعمتيه ـ فقالت يا أبتى ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم فقال لها وأنت فى هذه أشعر

منزلة النثر الجاهلي من الأدب والتاريخ

المحافظة والرواية عند العرب واتصالها بطبقات الرواة الاسلاميه

تعلمون أن العصر الجاهلي يمتد الى ماقبل الاسلام بنحو قرنين تقريباً وأن اللغة خلال ذلك التاريخ وعند اقترابها من ظهور الاسلام كانت ملحمة لقراع الالسنة وتصاول الفصحاء فى الاسواق الادبية والمحافل الجامعة وأنه لم يكن لاشراف العشائر عند تفاقم الفتن ولا لحكام القبائل عند ترافع الخصوم ولا للابطال فى صعصعة الحروب ولا للآباء عند تصرم الاعمار ولا للامهات مع بناتهن عند الاهداء ولا للفتيان فى المناقلة والسمر لم يكن لهؤلاء جميعا بد من كلام بل من كلام طويل يجذون به قرون الفتنة ويصيبون مقاطع الرأى ويصرفون الناس من قبله الى السلامة فأين ذلك النثر كله وما بال هذا الكلام ليس من جملته بأيدى الرواة الا قليل يستطيع كاتب فى عصر واحد أن ينشئ مثله ولا يبلغ أن يكون فى عرض أدب ابن المقفع ولا فى سعة بلاغات الجاحظ وهذا قس بن ساعدة خطيب العرب وقاضى خطبائها فى عكاظ ليس له إلا هذه الاسطر القليلة من خطبة لو لم يشهدها رسول الله لما تناقلها الرواة ولما اتصل خبرها بنا الى اليوم . لاجرم لقد عدت عليه أسباب التضييع وتبدد الكثرة على الاسماع وثقلت المؤونة فى حفظه على الناس وشغل العرب عنه بالشعر لاستطرافهم له وغلبته على عقولهم ولوفائه بما حرصوا عليه من تقييد مآثرهم وتخليد مناقبهم وأيامهم حتى مست الحاجة فى ذلك الوقت الى من يتخصص فى حفظ أنساب القبائل والاحتياط لما يفوت على الكافة من جملة أخبارها فنشأت طبقة النسابين الذين من أشهرهم دَغْفل الشيبانى وزيد بن الكَيِّس النمرى وورقاء بن الاشعر المعروف بابن لسان الحُمَّرَة واضرابهم

وإذاً لا ينبغي لما بقي من هذا النثر على أن له خطراً من الوجهة الادبية أن يكون له قيمة تاريخية يعتمد عليها الباحثون فى استخراج صورة واضحة لحياة العرب فى هذا العصر الجاهلى

وكانت حظوة الشعر بتوفر الرواة على تتبعه وصرفهم وجوه العناية لروايته وتسييره مع قوة اثبات المحفوظ منه فى الصدور لمكان الوزن والقافية

وان النثر لم يحظ بكل هذا فى الجاهلية ولا فى غيرها من العصور الادبية كما قدمنا كان ذلك غير قادح فى الحافظة العربية التى بلغت من القوة والوعي عند العرب إلى مالم يصل اليه غيرهم من الاميين من أمم التاريخ لانهم فوق أميتهم وقلة اشتغالهم بغير الكلام من الصناعات كانوا أهل حجاج وجدل قد فشت فيهم عادة المساجلة وانتشر بينهم التفاخر بالمآثر والتنابز بالالقاب فتداعوا إلى مايرتطون به مناقبهم ويشهدونه على جملة تاريخهم وأصبح العربى منهم كلفا بأن يتخذ من قوة حافظته سجلا جامعا يساعفه عند الخاطر الهاجس والحجة البادية وعند محاولة الاقناع والظفر بالغلبة عند المناظرة ولا تغنى فى ذلك الكتابة حتى لو كانت ممكنة حاضرة وصناعة فاشية لما عدلوا اليها ولما أستغنوا عن الحافظة بها .

وقد تقولون أن الحافظة قلما تسلم من خطأ أو تبرأ من غفلة أو سهو مهما ألححنا فى الايمان بعجائبها ومهما قلنا أن فى أيامنا هذه من الاميين من لهم أعمال واسعة وتجارات كثيرة ورؤسهم دفاتر أعمالهم وسجل حسابهم وتقولون ماظنك بالخطيب يقوم على الناس بالكلمة الطويلة يسمعها الراوية لاول مرة فيحفظها على استوائها وأنت لو حاولت من المتكلم نفسه أن يعيد عليه كلامه فقد يعجزه ذلك وربما غير فيه وبدل . وهبك توفقت الى تصحيح الخطبة وتعديل الكلمة فى المقام الواحد لكثرة الحضور وحرصهم على الاسماع والحفظ وقلت ماعسى أن يفوت أحدهم من عبارة أو لفظ قد لايفوت الآخرين فكيف بهذا

الكلام يبقى مصونا فى تلك السلسلة الطويلة من المتناقلين من راوية الى راوية ومن جيل إلى جيل حتى ينسخ فى الكتب كما قيل من غير تغيير ولا تبديل ونحن نسلم بما تقولون ونحسب أن شيئاً من هذا لا يقدح فى أصل الخبر ولا يزيد على أن يدخله بعض التحريف من زيادة أو نقص والاصل على الجملة صحيح ثابت حتى لقد يتصل الخبر المروى باعتبارات قوية تتظاهر الناس على حفظه وشدة الامانة فى آدائه كشرف قائله إذ كان فى حفظه تشريف لهم أو كاشتماله على تفصيل لدين أو تأويل لشبهة فى حلال أو حرام كما فى خطب النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ولبعضها طول وفى بعضها قصور وهى لم تكتب إلا بعد زمن طويل وكذلك خطب الخلفاء وأعيان المتكلمين فى العصرين الاسلامي والاموى من بعده ومع ذلك لم تسلم هذه على الاقل من الاختلاف فى الرواية كما تعلمون

ولقد قويت العناية بالرواية والحفظ للشعر واللغة فى الصدر الاول لما ظهر من الحاجة الى ذلك فى التفسير والتأويل حتى اتصلت هذه الآثار بطبقات الرواة الاسلاميين طبقة بعد طبقة وصار آخرهم كأولهم فى الاستبصار والتثبت إلى أن استبحر التدوين فى القرنين الثاني والثالث الهجريين وبذلك وصلت اللغة أو التاريخ اللغوى والادبي فى جملته الى الأخلاف من العصور المتأخرة وكانت أولية ذلك على يد الطبقة الثالثة من الرواة التى رأسها الخليل ابن احمد المتوفى بعد منتصف القرن الثانى الهجرى وهو واضع كتاب العين الذى هو أول كتاب جمعت فيه اللغة

وبعد فنستطيع أن نمشى بقدم ثابتة على هذه القاعدة فيما نورده من أقسام الكلام العربى من الخطب والوصايا والمحاورات والحكم والامثال بقدر مايهدى اليه اجتهادنا فى التوقى وحرصنا على تحرى الصواب والله الموفق

الخطابة عند العرب

لاشك أنه كان للعرب خطابة ممتازة وكان فيهم سادة مقدمون لهم عارضة وفيهم بيان ولسن وأنه كان لهم من أشراف عشائرهم خطباء يقومون فيهم مقام المؤدبين من الولاة فى الامم ذات النظام الثابت والدولة القائمة وكان لهذا الفن من الكلام دواع حاضرة تكون فى كل جماعة تضمهم رقعة من الارض وذلك أن العرب كغيرهم من الامم كانوا خاضعين لضرورة الاجتماع البشرى الذى يحتم على القبيل من الناس أن يلقوا بأيديهم إلى واحد منهم يتميز بما يكون له دون سائرهم من فضل العقل أو بسطة الغنى أو قوة البأس أو مايشبه ذلك مما يصير الناس الى التسليم له اختياراً من عند أنفسهم واستكفافاً للعادية من سفهائهم وهذا هو معنى قول علماء الاجتماع ان الملك منصب طبيعى فى الانسان إذ لا ينبغى أن يكون الاصل فى معنى الملك شيئاً أكثر من هذه السيادة الناشئة عن التفوق الطبيعى لبعض أفراد الجماعة على بعض . واعتبر ذلك بالآباء فى أبنائهم وأهليهم وهم الأسرة الصغرى وما الجماعات والأمم الا أمثلة مكبرة على نحو هذا النظام الاجتماعى الصغير فالعرب على أنه لم تكن لهم دولة ولم يجمعهم ملك ولا انتظمتهم شريعة كان حتما عليهم أن يخضعوا كما يخضع سائر البشر لهذه الظاهرة السابقة التى كانت السيادة فيها مصدرا للهداية ومادة للاصلاح وأداة لحراسة الاجتماع وتنظيم مافيه من قوى الحياة وأسباب تنازع البقاء واستتبع ذلك بالضرورة الحاجة الى استعمال الجارحة التى هى فى الحقيقة مترجمة عن الفكر مؤدية الى هذه المعونة الاجتماعية وهى اللسان وكانت هذه الحاجة الماسة

هى التى فتقت له وجه الحيلة فى تأليف هذا النوع من الكلام ونشأت حينئذ الخطابة تالية فى الوجود لاستقرار الجماعات البشرية وظهور هذه الرياسات المختلفة وهى لاتزيد فى معناها على أن تكون كلاماً له شأنه من التأثير يلقى على الجمع من الناس لاقناعهم بما فيه الخير لعامتهم فى معاشهم ومعادهم وقد جرت العادة أن يكون بطش الحكام متأخراً فى الوجود عن الاعذار بالكلام

ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف كانت الخطابة صفة لازمة للانبياء والرسل فيما يبلغون عن الله من الدعوة إلى الهدي ودين الحق . وكيف كانت عماد القادة من هداة الامم يتقدمون بها فى مفاتح الانقلابات العامة حين يتجرد المصلحون منهم للدفاع عن مذاهبهم والانتصار لآرائهم وحمل الناس على اتباع سبيلهم وكيف يستفحل شأنها حين يستحر النزاع فى الأمة الواحدة وفى الامم المتجاوره على تجاذب المنافع المؤدى الى كثير من ألوان الخصومات السياسية والمذهبية ونحوها وكيف تصير إلى الفتور والسكون حين تبلغ الأمة الى دعة الامن واستقرار النظام وقيام الحدود العادلة من الشرائع المنزلة والقوانين الموضوعة وحين ينبعث الناس فى وجوه معايشهم فى ظل هذه الطمأنينة الشاملة وتنصرف العقول الى ضروب أخرى من الاصلاح فى الابتكار والتأليف والعمل على استكمال ما وهب للانسان من خير وما أعدله من سعادة واصلاح

وهناك دواع أخرى يوشك أن تكون خاصة بالعرب فى هذا العهد دعت الى بلوغ الخطابة عندهم درجة قد تكون تجاوزت حد الغضاضة الى شيء من النضوج والكمال ينبغى أن يجعل من أهمها تأصل ملكة البيان فيهم وصيرورة الكلام صناعة لهم وتداعيهم الى شهود المواسم الجامعة للتفاخر بهذه الآثار الادبية وقد سبقت الاشارة الى شيء من ذلك فى الكلام على الاسواق ومن ذلك أيضا شيوع الأمية بينهم

وتباعدهم فى ديارهم واستقلالهم فى عشائرهم وهم أهل حل ورحلة فكانت الضرورة داسة الى أن يقوم الوافد الرفيق لهم مقام الرسائل الضافية فى سفارات الصلح وعقد المحالفات وتأمين السبيل وكانت بعد ذلك حروبهم وأيام منافراتهم وأندية ساداتهم مثارا لهذه الخطب يقصرونها أو يطنبون فيها على مقتضى الاحوال الداعية والمقامات المختلفه . ولو كان العرب يكتبون فى الرقوق أو ينقشون كغيرهم من أمم التاريخ على الاحجار لاستطاع الناس أن يجدوا من آثار بلاغتهم فى المساجلة بالخطب والمحاورات شيئا كثيرا غير أنك لا تزال تعد كثيرا من أسماء خطبائهم وساداتهم ولا تجد لهم أو للاكثر منهم شيئا يذكر

وهم يعدون كعب بن لؤى وهو الجد السابع للنبي صلوات الله عليه من أقدم خطبائهم ولا يعرفون عنه إلا أنه كان يخطب على العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البر وأنه لما مات أكبروا موته وأرخوا به الى عام الفيل ويعدون من أشهرهم قيس بن خارجة خطيب حرب داحس والغبراء وليس له كلام الا قوله حين سئل عما عنده فى حالات داحس والغبراء (عندى قرى كل نازل وأمان كل خائف وخطبة من لدن تطلع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع ، وكذلك خويلد بن عمر الغطفانى خطيب الفجار وقس بن ساعدة خطيب عكاظ وأكثم [1] بن صيفى حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها وغير هؤلاء كثيرون لا يعرف تاريخ الادب غير

---

[1] روى صاحب العقد أن النعمان بن المنذر أوفد أكثم بن صيفى الى كسرى بالمدائن ومعه رهط من أشراف العشائر العربية وخطبائها وسادتها فيهم حاجب بن زرارة التميمى والحارث بن عباد البكرى وعمرو بن الشريد السلمى وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين والحارث بن ظالم وعمرو بن معديكرب الزبيدى وغيرهم وقد اورد صاحب العقد مقالاتهم بين يدى كسرى وما ورد به عليهم ومن الناس من يستبعد صحة هذه الوفادة

أسمائهم ولم يصل اليه إلا الشيء القليل من آثارهم وانا نورد هنا بعض ما أعثر عليه التوفيق من أمثلة الخطابة الجاهلية مما تحرفت عنه عادية التضييع ثم نتبعها بكلمة عن الوصايا ليكون ما نصف به النثر فى هذا العصر مأخوذا من هذه المادة ان شاء الله .

خطبة المأمور الحارثى

روى أبو على القالى بسنده عن أبي عبيدة قال (رواه أبو علي بالنون مكان الراء) قعد المأمور الحارثي فى نادى قومه فنظر الى السماء والنجوم ثم فكر طويلا ثم قال أرعوني أسماعكم وأصغوا الى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح[1] بالاهواء الاشر[2] وران[3] على القلوب الكدر وطخطخ[4] الجهل النظر ، أن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر أرض موضوعة وسماء مرفوعة وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب وقمر تطلعه النحور وتمحقه أدبار الشهور وعاجز مثر وحُوّل[5] مُكْدٍ[6] وشاب مختضر[7] ويفن[8] قد غبر وراحلون لا يؤبون وموقوفون لا يفترون ومطر يرسل بقدر فيحيي البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت الزهر وماء يتفجر من الصخر الأيَرّ[9] فيصدع المدر[10] عن أفنان الخضر فيحى الأنام ويشبع السّوام ويُنْمى الانعام ان فى

---

١ طمح ذهب ـ والطماح ككتاب النشوز والجماح ٢ الاشر كالفرح معناه المرح ٣ ران غطى والكدر ضد الصفو ٤ الطخطخة تسوية الشيء او ضم بعضه الى بعض ٥ حول ـ شديد الاحتيال وهو كصرد وبومة وهمزه وسكر ٦ مكد ـ قليل الخير ـ من اكدى الرجل بخل او قل خيره ٧ مختضر ـ ميت فى فترته فقال اختضر الشاب اذا مات فى شبابه ٨ اليفن ـ الشيخ الكبير غير بقى او مضى ضد

٩ الاير ـ الشديد الصلب ـ ويقال صخرة يراء ايضا ولا يقال كذلك لنحو الماء والطين ١٠ المدر محركة قطع الطين اليابس

ذلك لاوضح الدلائل على المدبر المقدر البارىء المصور . يا أيها العقول النافرة والقلوب الثائرة [١] أني تؤفكون [٢] وعن أى سبيل تعمهون [٣] وفى أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون [٤] لو كشفت الاغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة

خطبة اكثم بن صيفى فى قومه يدعوهم إلى الاسلام

روى فى مجمع الامثال عن ابن سلام الجمحى قال لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا الناس إلى الاسلام بعث أكثم بن صيفى ابنه حبيشا فاتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال . يابنى تميم لا تحضرونى سفيها فانه من يسمع يخل أن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه لاخير فيمن لاعقل له كبرت سنى ودخلتنى ذلة فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه وان رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الاوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو اليه وان الرأى ترك ماينهى عنه [إن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أنتم فان يكن الذى يدعو اليه حقاً فهو لكم دون الناس وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه] وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل وسمى ابنه

---

(١) الثائرة — العداوة وهو اما اى يكون من الوصف بالمصدر او فى الكلام حذف اى ذات العداوة
(٢) تؤفكون — اى تصرفون — وفعله افك يافك (٣) تعمهون — تتحيرون — وفعله عمه كمنع وفرح — وهو التردد والتحير فى الضلال (٤) توفضون تسرعون

محمداً فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخراً أئتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين أن الذى يدعوا اليه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبداً وأصبحتم أعز حى فى العرب وأكثرهم عددا وأوسعهم دارفاني أرى أمرا لايجتنبه عزيز إلاذل ولا يلزمه ذليل الاعز ان الاول لم يدع للآخر شيئا وهذا أمر له ما بعده من سبق اليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم والاختلاف عجز . فقال مالك بن نويره قد خرف شيخكم فقال اكثم ويل للشجى من الخلى والهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقني

ومن هذا الباب أيضا مقامات الوفود بين يدى الملوك فى التهنئة بالمحاب والتعزية عند المصائب ويتحدث الرواة أن سيف بن ذى يزن لما ظفر بالحبشة وأجلاهم عن بلاده أتته وفود العرب تهنئه وكان فيهم وفد من قريش وسيدهم ومتكلمهم عبد المطلب بن هاشم فلما مثلوا بين يديه قال عبد المطلب ان الله تعالى ايها الملك أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا باذخا شامخا وانبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم معدن وأطيب موطن فأنت ابيت اللعن رأس العرب وربيعها الذى به تخصب وملكها الذى به تنقاد وعمودها الذى عليه العماد . ومعقلها الذى يلجأ اليه العباد سلفك خير سلف وأنت لنا بعدهم خير خلف ولن يهلك من أنت خلفه نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشفك الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة

وعزى اكثم بن صيفى عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال له . أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر لايحلون عقد الترحال الا فى غيرها وقد أتاك

ما ليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع اليك وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك . أن الدنيا ثلاثة أيام فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه . واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته . وغداً لاتدرى من أهله وسيأتيك أن وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفروع بعد أصولها واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها وخير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله

ومن قصار خطبهم فى الاملاك :

خطبة أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويجه خديجة بنت خويلد وهى: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً وجعلنا الحكام على الناس ثم أن محمداً ابن عبد الله بن اخى من لايوزن به فتى من قريش إلارجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً وان كان فى المال قل . فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما احببتم من الصداق فعلى

ومن الخطب المأثورة خطبة قس بن ساعدة الايادى فى عكاظ

روي أبو الفرج الاصبهانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما قدم وفد إياد على النبي صلى الله عليه وسلم قال ما فعل قس بن ساعدة قالوا مات يارسول الله قال كأنى أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدنى احفظه فقال رجل من القوم أنا احفظه يارسول الله قال كيف سمعته يقول قال سمعته يقول :

أيها الناس اسمعوا وعوا : من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت

ليل داج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر، ونجوم تزهر: وضوء وظلام. وبر وآثام. ومطعم ومشرب. وملبس ومركب . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ارضوا بالمقام فقاموا. أم تركوا فناموا واله قس ما على وجه الارض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه. وأدرككم أوانه. فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الاولين   من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها   يمضي الاصاغر والاكابر
أيقنت أني لا محا   لة حيث صار القوم صائر

وأن المتأمل في هذه الخطبة وفي خطبة المأمور السابقة يجد بينهما مشابهة تدل على اتفاق الخواطر أو تواردها على مشاهدات واحدة هي التي أنتجت هذا التشابه

كلمة قبيصة بن نعيم

في وفد بني أسد حين قدموا على امرئ القيس بعد مقتل أبيه

وهي على ما في الاغاني وصبح الاعشى في روايات بعضها يتمم بعضاً قالوا: وفد على امرئ القيس بعد مقتل أبيه رجالات من بني أسد كهول وشبان فيهم عبيد بن الابرص الشاعر والمهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم فلما علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بانزالهم وتقدم في اكرامهم والافضال عليهم واحتجب عنهم ثلاثا فقالوا لمن ببابه من رجال كندة ما بال الرجل لا يخرج الينا فقال هو في شغل باخراج ما في خزائن حجر من العدة والسلاح، فقالوا

اللهم غفرا ، انما تدمنا فى أمر نتناسى به ذكر دافات ، و نستدرك ما فرط ، فليبلغ ذلك عنا ، نخرج عليهم فى قباء وخف وعمامة سوداء . وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا فى التراث

فلما رأوه نهضوا له وبدر قبيصة فقال : انك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ولا تتجاوز الهمم الى غاية إلا رجعت اليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى و بصيرة الفهم ، و كرم الصفح ، ما يَطول رغباتها ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزاراً واليمن . ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر ، التاج والعمة فوق الجبين الكريم وأخاء الحمد وطيب الشيم . ولو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولفديناه منه . ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه . فأحمد الحالات فى ذلك ان تعرف الواجب عليك فى احدى خلال ثلاث . أما ان اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته فيقال رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته الا بتمكينه من الانتقام أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها فهى الوف تجاوز الحسبة وكان ذلك فداء ترجع به القضب الى اجفانها لم يردده تسليط الاحن على البرءاء ، وأما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الازر ونعقد الخمر فوق الرايات قالوا : فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع طرفه اليهم فقال : قد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم واني لن أعتاض به ناقة أو جملا فاكتسب

بذلك سبة الابد وفت العضد. واما النظرة فقد أوجبتها الاجنة فى بطون امهاتها ولن أكون لعطبها سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد تحمل فى القلوب حنقا وفوق الاسنة عنقا

اذا جالت الخيل فى مأزق تصافح فيه المنايا النفوسا

اتقيمون أم تنصرفون ، قالوا بل تنصرف بأسوأ الاختيار، وابلى الاجترار لحرب وبلية، ومكروه وأذية، ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثلا :

لعلك ان نستوخم الوردان غدت كتائبنا فى مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس: لا والله لا استوخمه فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير، ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي، اذا كنت نازلا بربعى ومتحرما بذمامي . ولكنك قلت فأجبت . قال قبيصة ان ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والاعتاب

قال امرؤ القيس: فهو ذاك وفى ذلك يقول عبيد بن الابرص

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه اذ لالا وحينا
هلا على حجر بن أم قطام تبكى لا علينا
نحن الاولى فاجمع جمو عك ثم وجههم الينا
نحمى حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا

الوصايا

ثم نقول فى الوصايا وهى أيضا من الخطب وانما تكون من حكيم لقومه أو من سيد لعشيرته أو أب لبنيه أو أم لابنتها ويغلب أن يكون ذلك عند الاحساس بالاجل أو العزم على الرحلة . فمن ذلك وصية النعمان بن ثواب العبدى . قال فى مجمع الامثال: وكان رجلا يوصى بنيه ويحملهم على أدبه فأوصى

أحدهم وكان صاحب حرب : قال يابنى أن الصارم ينبو، والجواد يكبو، والاثر يعفو فاذا شهدت حربا فرأيت نارها تسعر وبطلها يخطر، وبحرها يزخر، وضعيفها ينصر، وجبانها يجسر فأقلل المكث والانتظار، فان الفرار غير عار، اذا لم تكن طالب ثار.

ومنها ما قالته امرأة عوف بن محلم الشيباني (وكان يقال فيه لاحر بوادى عوف) لابنتها أم إياس وكان عمرو بن حجر جد امرىء القيس الشاعر قد خطبها الى أبيها فزوجها منه فلما كان بناؤه بها أوصتها أمها وصية لم تدع شيئا من تأديب المرأة وكفايتها الاوضحته فيها . قالت أى بنية انك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت، الى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه فكونى له أمة، يكن لك عبدا، واحفظى لك خصالا عشرا، يكن لك ذخرا، اما الاولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وانفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك الا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه. فأن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بما له والارعاء على حشمه وعياله . وملاك الامر فى المال حسن التقدير. وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا، فانك ان عصيت أمره أوغرت صدره وان أفشيت سره لم تأمنى غدره، ثم إياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما والكآبة بين يديه إذا كان فرحا

المنافرة

ومن النثر المأثور عن أهل هذا العصر ما كان يقع أولا على جهة المحاورة بين رجلين ثم يتورط أحدهما أو كلاهما فينزع بهما الجدل الى المنافرة وهى

التحاكم الى الاشراف من حكام العرب ليفصلوا بينهما ويقضى الحكم لاحدهما أو يسوى بينهما . ومن ذلك ما وقع لعامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة العامريين وحديثهما مشهور قالوا: ان عامرا وقف لعلقمة يوما فجعل ينازعه الشرف فى قومه وتفاقم بينهما الامر وكان مما قاله عامر : والله لانا أشرف منك حسبا وأثبت منك نسبا وأطول قصبا

قال علقمة: أنا فرك وانى لبر وأنك لفاجر . واني لولود ، وانك لعاقر ، واني لوفى، وانك لغادر . قال عامر أنا فرك . وأنى أنشر منك أمة، وأطول قمة، وأبعد همة . وطال بينهما الكلام فتواعدا على الخروج الى من يحكم بينهما وجعلا يطوفان الأحياء وهاب الناس أن يحكموا بينهما خيفة ان يقع فى حييهما الشر حتى دفعا الى هرم بن قطبة الفزارى (وهو غير هرم بن سنان المرى ممدوح زهير) فلما علم بأمرهما أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفاديا من الفتنة. وجعل يطاولهما ويخوف كل واحد منهما من صاحبه حتى لم يبق لواحد منهما هم سوى أن يسوى فى حكمه بينهما ثم دعاهما بعد ذلك والناس شهود فقال لهما أنتما كركبتى البعير تقعان الى الأرض معا وتقومان معا . فرضيا بقوله وانصرفا عنه الى حييهما . وقد عمر هرم هذا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر أيهما كنت منفراً فقال يا أمير المؤمنين لو قلتها الآن لعادت جذعة (يعنى الفتنة أو الحرب) فقال له عمر أنك لأهل لموضعك من الرياسة

الحكمة والمثل

قد تصل صورة العبارة الى الغاية من ايجاز اللفظ وصحة المعنى وصواب التشبيه فتصيغ اليها الاسماع وتأنس بها الأفئدة وتسمى حينئذ بالحكمة والمثل

والعرب على بدواتهم أكثر الناس إرسالا للحكمة وضربا للامثال. لاقتدارهم على ألسنتهم. ولمطاوعة الكلام لهم، ولتفرغهم لصناعة الكلام، والمساجلة بالبيان وقد اشتهر من حكمائهم فى الجاهلية أكثم بن صيفى وذو الاصبع العدوانى (وهو حرثان بن محرث) وسمى ذا الأصبع لأن حية نهشته فى أصبعه وعامر بن الظرب وهو من عدوان أيضا وقس بن ساعدة الايادى . ومن أقدم حكمائهم لقمان المشهور وينسب إليه أنه أول من قال (رب أخ لك لم تلده أمك) ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى : ومن حكم أكثم بن صيفى خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، وشر الملوك من خافه البرىء ، (آفة الرأى الهوى) ، (رب قول أنفذ من صول) (مقتل الرجل بين فكيه) ، (رب عجلة تهب ريثاً) ، (وقد تجيء الحكمة فى الشعر . وممن عرف بالحكمة من شعراء الجاهلية أمية بن أبي الصلت وزهير ابن أبي سلمى وطرفة بن العبد وغيرهم ومعلقة زهير التى أولها (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم (حالية بضروب شتى من الحكم ، وحسب الحكمة فائدة أن يضمنها الكاتب أو المتكلم عبارته فلا تزال تورثها من البهاء والقبول ما يرتفع به جانبها ويشرف حسبها ، فتكون أمتع فى الصدر وآنق فى الاسماع وأسير فى الآفاق. إلى ماتثيره فى النفوس من حب الفضيلة والهداية إلى مكارم الأخلاق وصالح الأعمال . أما المثل فهو كالحكمة فى شرائطها السابقة غير أنه قد يشير الى قصة أو يرتبط بحادثة أو يقع جوابا فى مناقلة وعرفه بعضهم بأنه قول موجز سائر يشبه به حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لاجله. والأمثال تصدر من وحى الفطرة السليمة والحس الصادق والتجربة الصائبة ولم تخصص بها العرب دون سائر الأمم وهى ميزان تقدر به قيمة انتزاع العقول ومبلغ مذاهب الخيال ودرجة الطباع والأخلاق من الغضاضة والارتقاء

وقد عنى المتقدمون بجمعها وشرحها وأشهر ما بأيدى الناس من ذلك مجمع الأمثال للميداني وكتاب الأمثال للمفضل الضبي وفى غير هذين من كتب الأدب منثور منها كثير وهى كالحكمة تهب ماتقع فى تضاعيفه من الكلام رونقا وتفرغ عليه قبولا وحسنا وناهيك من المثل مايعطيك من بلاغ الحجة وانقطاع الخصم . والاستغناء به على قلة ألفاظه عن بسط المعنى المتنازع عليه فيما تحكيه صورة المثل من رفعة أوضعة أو من مدح أو ذم فهى من مظاهر الايجاز فى اللسان العربي

ومن أمثالهم . ان العوان لاتعلم الخمرة . (والعوان النصف الذى بلغت مبلغ النساء والخمرة لبس الخمار ويضرب للعالم بالامر المجرب له) . تجوع الحرة ولا تأكل بثديها (أى لاتكون الحرة ظئرًا وان أذاها الجوع يضرب لترفع الكريم عن ملابسه الخسيسه . قائله الحرث بن سليل الاسدى) أساء رعيا فسقى (يضرب لمن يفرط فى الامر ثم يروم صلاحه فيفسده) ، عينك عبرى والفؤاد فى دد (الدد اللهو . يضرب لمن يظهر لك خلاف ما يبطن) يداك أوكتا وفوك نفخ (يضرب لمن يقع فى شر ما يفعله) : ان البلاء موكل بالمنطق (يضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه : وقائل هذا المثل أبو بكر حين أمر رسول الله ان يعرض نفسه على قبائل العرب . قالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما قال على فدفعنا الى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم قالوا من ربيعة فقال من هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا من هامتها العظمى قال فأى هامتها العظمى ؟ أنتم ذهل الاكبر ؟ قالوا نعم قال أفمنكم عوف الذى يقال له (لاحر بوادى عوف) ؟ قالوا لا قال أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا لا قال أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا لا

قال أفنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها قالوا لا قال أفنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة قالوا لا قال فأنتم أخول الملوك من كندة قالوا لا قال فأنتم أصهار الملوك من لخم ، قالوا لا قال فلستم ذهلا الأكبر أنتم ذهل الأصغر فقام اليه غلام منهم حين بقل وجهه يقال له دغفل فقال.

ان على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

ياهذا انك سألتنا فلم نكتمك شيئاً من أمرنا فمن الرجل أنت ؟ قال رجل من قريش . قال بخ بخ أهل الشرف والرياسة فمن أى قريش أنت ؟ قال من تيم بن مرة . قال امكنت والله الرامي من صفاء الثغرة أفنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعاً ؟ قال لا : قال أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال لا قال أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كأن بوجهه قمرا يضىء ليل الظلام الداجى ؟ قال لا قال أفمن المفيضين بالناس أنت قال لا قال أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال لا . قال أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال لا قال أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا . قال أفمن أهل السقاية أنت ؟ قال لا

واجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع الى رسول الله فقال دغفل

صادف در السيل در يدفعه يرفعه حينا وحينا يضعه

أما والله لو ثبت لاخبرتك أنك من زمعات قريش أو ما أنا بدغفل قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عَلِيّ قلت لابي بكر لقد وقعت من الاعرابي على باقعة قال أجل أن لكل طامة طامه وان البلاء موكل بالمنطق

وقد يتمثل بالقول على لسان طائر أو بهيمة تفاديا من جور حاكم أو قصدا إلى الاستطراف فى انتزاع الحكمة ووضعها فى صورة التسلية واللهو ويسمى هذا النوع بالامثال الفرضية ومن ذلك قولهم (فى بيته يؤتى الحكم)

ويزعمون فى أصل هذا المثل أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الارنب يا أبا الحسل . قال سميعا دعوت . قالت أتيناك لنحتكم إليك قال عادلا حكما قال فاخرج إلينا . قال فى بيته يؤتي الحكم . قالت إني وجدت تمره . قال حلوة فكليها . قال فاختلسها الثعلب قال لنفسه بغى الخير ، قالت فلطمته قال بحقك أخذت قالت فلطمنى ، قال حر انتصر قالت فاقض بيننا قال قد قضيت .·. فذهبت أقواله كلها أمثالا

نثر الكهان

وهذا باب واسع من كلام الجاهليين قوامه السجع الذى يعمد به غالباً إلى زيادة التأثير فى السامعين وألهائهم عن التتبع لما يلقى اليهم من الأخبار التى كانت منتهية الى غاية من الغرابة ومستدعية للعجب . وقد كانت الكهانة شائعة فى الجاهليه وخاصة قبيل مبعث النبي صلوات الله وسلامه عليه ويذكر العلماء أن من الكهان من كان له رئي من الجن يسترق له السمع من الملائكة ثم يلقيه اليه فيخبر به الناس عند استبهام أمر أو حدوث ريبة لامرأة أو عند افتقاد ضالة من متاع أو مال ومنهم من كان يعتمد على قوة نفسه وتسليط خواطره على استنتاج مايقوله من مقدمات تظهر له ولا عجب فان للنفوس الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية والتحليق فى عالم الارواح وان ذلك ليقع لكثير من الناس فى حال النوم واليقظة ويأتى بعضه صدقا وبعضه كذبا . على أن استراق الجن للسمع واصطفاءها الكثير من الانس مما لايجوز إنكاره بعد الذى استفاض من ذكره فى القرآن . ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان والكواهن فى تعرفهم الحوادث وصدق كثير من أخبارهم وانطباقها على الحقيقة

ويقولون ان هند بنت عتبة وهى أم معاوية بن أبى سفيان كانت فى الجاهلية فى بيت الفاكه بن المغيرة المخزومي وكانت داره مثابة يغشاها الناس فاطلع عليها زوجها يوما وهى نائمة وقد خرج من عندها رجل فاتهمها به واستلحقها بأبيها وفشا فى الحديث الخبر عنها فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها وأخرج معها نسوة من قومها وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة فى رجال من قومه فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيرا فقال لها أبوها يابنية لا تكتميني من أمرك شيئاً فان كان مابك لريبة نرجع ولا بأس عليك فقالت هند (وكانت امرأة عاقلة منجبة) لا والله يا أبت ماذاك لريبة ولا فاحشة ولكنكم تقدمون على بشر يخطىء ويصيب وأخشى أن يسمنى بسمة تبقى علىّ وصمة عار آخر الدهر . قال سأبلوه لك . ثم خبأ خبيئاً وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئهم ثم استنظروه فى أمر النسوة فجعل يتصفحهن واحدة واحدة حتى أقبل على هند فقال (انهضى غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكا اسمه معاوية) ويذكرون من كواهنهم طريفة الكاهنة وكانت باليمن وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة ولها حديث مع عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل زواجه بآمنة بنت وهب الزهرية رضى الله عنها ومن أشهر كهانهم شق أنمار وسطيح الذئبي ويقولون إن شقا هذا كان نصف إنسان له عين واحدة ويد ورجل واحدة وأن سطيحا كان يدرج كما يدرج الثوب لا عظم فيه ألا الجمجمه وأن وجهه كان فى صدره وأنهما اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمى أحد ملوك العرب وأخبره سطيح باغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد فى تصديقه إذ قال (أحلف بما بين الحرتين من حنش ليهبطن أرضكم الحبش وليملكن ما بين أبين إلى جرش (وقال شق) أحلف بما بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم

السودان وليملكن ما بين أبين الى نجران ، ويزعمون أن عبد المسيح بن بقيله الغساني أرسله كسرى إلى سطيح الذئبي لما حصلت الآيات بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فوافاه وقد أشرف على الموت فلما كلمه رفع رأسه إليه ثم قال عبد المسيح ، على جمل مشيح إلى سطيح . وقد أوفى على الضريح بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الايوان ، وخمود النيران . ورؤيا الموبذان رأى ابلا صعابا تقود خيلا عرابا . قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى ، السماوة وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح بشام يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات وكل ماهو آت آت) فرجع عبد المسيح إلى كسرى فأخبره فغمه ذلك ثم تعزى فقال (إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان) : قالوا فهلكوا كلهم فى أربعين سنة والله أعلم . على اننا بعد ذلك لا نستطيع الجزم بصحة هذه النصوص لما قدمناه من الرأى فى الرواية والحفظ وان كان ذلك لا ينفى صحة هذه الحوادث أو بعضها على الأقل — وقد آن لنا أن نصف هذا النثر بما نجعله نقداً له فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه ثم نذكر شيئاً من خصائص الخطابة والموازنة بينها وبين الشعر وما يذكره العلماء من أدب الخطباء والله المستعان

اقسام النثر الجاهلى

قد رأيت فيما سقناه من الامثلة السابقة كيف كان يغلب على أكثرها السجع . وهو التزام التقفية وتساوى الفواصل من كل فقرتين أو أكثر كما فى خطبة قس بن ساعدة والمأمور الحارثى . وكيف كان بعضها مفصلا مزدوجا . (والتفصيل والازدواج أن يبنى الكلام على جمل متساوية ذات مقاطع تستقل غالبا بمعناها وينتهى الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ولا اتحاد فاصلة) كما فى أكثر كلمة قبيصة بن نعيم : وبعضه كان نثراً مرسلا .

وهو الخالص من تساوى الجمل والتزام التقفية كما فى تعزية أكثم بن صيفى لأحد الملوك . وإذا يكون النثر العربي فى الجاهلية دائراً بين السجع والازدواج والترسل أو المنثور المرسل وقد جاء القرآن الكريم على هذه الانواع الثلاثة فمنه المرسل كآية الميراث فى سورة النساء ومنه السجع كسورة المدثر وغيرها من قصار السور . ومنه المزدوج أو المفصل وهو كثير (١)

مميزاته فى ألفاظه : من المحقق أن نثار الجاهليين لم يكونوا فى الجملة أهل تحبير وروية وقد كانت لهم بديهة وكان لهم ارتجال يعجلهم فى كثير من الاحيان عن تخير الالفاظ واجتناب الجفاء والخشونة يعرض لقائلهم المعنى فيرسله فيما يحضر من اللفظ وعسى أن يكون بالغا إلى حد الغرابة والنفرة من ذوق أهل العصور المتأخرة كقول الحارثي (طخطخ الجهل النظر) ، (وكالصخر الاير) فى كلمته السابقة ولا ينبغي أن يحمل هذا إلا على نبو الطبع وجفاء الغريزة ، ولا يبرأ الكلام العربى فى هذه الجاهلية من ذلك العيب وان احسنت به الظن . نعم قد تكون جفوة اللفظ وغرابته فى ذاته غير قادحة فى لطف موقعه وغنائه فى مكانه ولكن ذلك معوز إلى تمهر وتمام حذق فى

---

(١) غير أنه يلاحظ أن فى نظم القرآن على هذه الاساليب المعروفة للعرب ضربا من التحدى الغرض منه المبالغة فى قطع العلل عنهم وافساح الطريق لمن يتقدم الى المعارضة منهم ويكون بعد ذلك عجزهم عن التحدى والمعارضة ناشئا من قصور مقادير البشر عن محاكاة هذا الكلام ويلاحظ أيضا مابين سجع العرب وسجع القرآن من الفرق الكبير فى التقدير الادبى فقد تطول السجعات فى القرآن وهى مبنية على حرف واحد كالراء فى سورة القمر والدال فى البروج والراء فى المدثر ولا تجد فاصلة قلقة ولا حرفا مستكرها بخلاف السجع العربى فلم يبرأ فى الجملة من التكلف والاستكراه ومن ألطف مافى القرآن أنه قد يسجع الفقرة المسجوعة وفى هذا من جمال القسمة ولطف الاسلوب مايعرفه الذوق كالذى تراه فى قوله تعالى (ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد)

تهيئة الموضع اللائق له . وتأنيس غيره من الكلمات به والاجتهاد فى المجانسة بينها وبينه . وذلك انما يكون برعاية المقامات واحكام الصلة بين المعنى وعديله من اللفظ ، وقلما يتهيأ ذلك الا عند طول الروية والقعود لاختيار الكلام وحسبك أن ترى ذلك فى قوله تعالى (ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى) فان هذه الفاصلة الاخيرة لو ذهبت تضع مكانها أدمث الالفاظ جانبا وأرقها حاشية لما أصبت من الغناء والكفاية مثل ما تصيب من هذه اللفظة الجاسية الغليظة وكأن القرآن عادل هذه الغرابة فى تلك القسمة الجائرة عن مواقع الصواب والمقاربة بما فى هذه اللفظة من الغرابة وقوة الشكيمة محاكاة لها على طريق التقريع والتهكم كما تعيد كلام محدثك وتحكى صوته وشمائله عند قصد الاستهجان والسخرية .

وانكم لتجدون لتركيب اللفظ من حروف قوية كحروف الاطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الحلق أو من حروف رخوه لطيفة النطق كأحرف الشفتين من اللام والميم والنون ونحوها : تجدون لذلك دخلا فى قوة اللفظ وجزالته وفى سلاسته ولينه وكذلك تضعيف بعض الحروف أو تكريرها وكون الكلمة زائدة على ثلاثة أو على صيغة من صيغ المبالغة أو كونها تدل على معاني العلاج والقوة كل ذلك له شأن فى تصوير معنى جزالة الكلمة وقوة متنها كما أن عكس ذلك له أثره فى تصيير الكلمة الى الدماثة والرقة والعذوبة وقد يختلف على المعنى الواحد لفظان أحدهما قوى مجهد والآخر لطيف سهل . كالمهيع والسبيل وكالحوباء والنفس وكالخضرم والكثير وأشباه ذلك مما لا يخفي على أهل البصر بهذه الصناعة

ذلك ومن صفات الالفاظ فى نثر الجاهليين استعمالها غالبا فى معانيها ومعنى ذلك ندرة التشبيه والاستعارة في كلامهم على أنه قد يقع لهم أحيانا من الكنايات

القريبة ما لا تبلغ الى فضيلته الحقيقة المجردة كقول قبيصه بن نعيم فى كلمته (وكان ذلك هداء ترجع به القضب الى أجفانها لم يردده تسليط الاحن على البرءاء)

وانما دعاهم الى ذلك شدة احاطتهم بلغتهم وعلمهم بأوضاع ألفاظهم وقلة حاجتهم حينئذ الى استعمال لفظ مكان لفظ ما دام فى قدرتهم الاتيان لكل معنى بما يطابقه من اللفظ من غير احتياج الى تشبيه ولا تأويل مجاز

ومن مميزات الالفاظ أيضا الايجاز والخلو من اللحن ومن تكلف المحسنات اللفظية كالجناس والتورية وما الى ذلك من أنواع البديع

مميزاته فى معانيه : وان المتأمل فى معانيهم ليراها فى الاكثر معانى فطريه مسايره لطبائع الاشياء مشتقة من هذه المشاهدات البدوية التى لم تصل بهم الى حد الفلسفة والتعمق فى استخراج المعانى البعيدة ولا الى ما يقع فى خواطر الامم المتحضرة ذات المدنيات الصناعية والمظاهر المتنوعه وبذلك يمكن التميز بين معاني هذا العصر والعصور التى استبحر فيها العمران وتنوعت المشاهدات وتغير الوطن العربي من بداوة الى حضارات اقليمية عظيمة كان لها شأنها فى استحداث كثير من المعاني المنتزعة من هذه المشاهدات الجديدة التى تختلف من وجوه كثيرة عن صحارى البدو ومراتع الماشية ومطارد الوحوش ودوارس الاطلال وتلك الآفاق البدوية المالكة على العربى سمعه وبصره وتفكيره على أن لهم فى حكمهم ومضارب أمثالهم وكثير من وصاياهم من المعاني الاجتماعية الخالده ما لا يزال أهل الاجيال الحاضرة يبتغونها ويسلكون سبيلها ويتجملون فى أقوالهم بما يتمثلون به من محاسنها

ومن أظهر صفات المعاني الجاهلية خلوها من المبالغات المفضية غالبا الى الكذب وذلك لما ركب فى طباع أهل البدو من حب الصراحة وايلاف الصدق فى حكاية الحال الراهنة بما هي عليه من قوة أو ضعف لا يزيدون ولا ينقصون

اسلوب النثر الجاهلى

ينبغى أن يدخل فى نقد الاسلوب ما يأتى:

أولا ـ صور وضع الالفاظ على وجه من وجوه النثر السابقة من سجع او ازدواج أو ترسل

ثانيا ـ طريقة الاداء من الحقيقة أو الخيال باتباع الطريف من طرق التعبير كالكنايات القريبة وتجاهل العارف وخطاب ما لا يعقل من الحيوان والجماد .

ثالثا . النظر فى جملة الاسلوب من حيث الجزالة أو الرقة الناشئة عما يتركب منه من المفردات على نحو ما أسلفنا فى نقد الالفاظ .

رابعا . النظر الى الربط والملاءمة بين العبارات ثم النظر الى ما يكون من فضول وترادف أو حذف واختصار.

وأنك لو تتبعت على الاسلوب بهذه المقاييس السابقة لتكون بقدر الامكان قد أوفيت على نقده وأتيت على خافيه وظاهره . ولننظر بعد فى هذا الاسلوب الجاهلى فقد نري أن الذى يغلب عليه السجع خصوصا فى تخرصات الكهان وفى الوصايا وفى أكثر الخطب كما قدمناه وكانت طريقتهم فى الاداء الالتجاء الى الحقيقة وقلما نظفر منهم بكلام مبنى على التخيل أو مخاطبة الجماد إلا أن يكون ذلك فى الشعر لا فى النثر

وفى أسلوبهم الجزالة وقوة الاسر مع شئ من عنجهية البداوة فى ارتضاخ الغريب والوعر من الكلمات أما العناية بالربط والتجنيس بين الجمل فقد يفوتهم ذلك أحيانا كما فى أكثر المأثور عن اكثم بن صيفى وجملة الاسلوب نقية من الفضول والترادف إلا عند دعوة المقام ومساس الحاجة كما رأيت فى قول قيس بن خارجة (وانهى عن التقاطع : بعد قوله آمر فيها بالتواصل) على أن الحكم على أهل البدو جملة بالخشونة والقوة فى الكلام قد لا يسلم من الاسراف إذ كانت سنة التكوين تقضى أن يوجد فى كل جملة من الناس خلقة وجبلة من يكون

كزا غليظ الطبع ومن يكون سهلا سمح السجية رقيق الحاشية بل قد يعرض ذلك للشخص الواحد فى حالين مختلفين يتوعر فى احداها حتى ليكاد يعجم مايعرب ويتسهل فى الاخرى حتى ليكاد يذوب عذوبة وسلاسة وان كنا لا نستطيع أن نجد الدليل على ذلك من كلامهم المنثور لقلة ما بأيدينا منه ـ ونرجو أن نبسط لكم القول على هذا الموضوع فيما ستفصله عند الكلام على الشعر إن شاء الله

اغراض الخطابة

لم تكن الخطابة فى هذا العصر تتعدى معظم الشؤون العامة التى تكون فى أمة بدوية كالعرب فى الجاهلية فكان من أهم أغراضها اصلاح ذات البين لكثرة ما كان يقع من التنافر والمشاحنة ثم التحريض على القتال عند نشوب الحروب. وكانت لهم سفارات إلى القبائل المتفرقة والامم المجاورة فى عقد المحالفات وتأمين السبل واحتمال الديات . ذلك الى ما كانوا يتنازعونه بينهم من قواعد الشرف والتفاخر بالحسب والعدد وكان لهم خطبة إملاك يضمنونها ما يشاءون من الترغيب فى الصهر والتنويه بالعروسين مع التزام القصد فى المديح بما يجرى مع الواقع المعروف

ادب الخطيب

وكانوا يعدون للخطيب خصالا لا يكمل عندهم إلا بها فمنها شرف الاصل وصدق الحديث وجهارة الصوت وقلة التلفت وكثرة الريق ونظافة البزة وكانوا يخطبون على رواحلهم أو قياما على نشز من الارض مع اعتجار العامة واتخاذ المخصرة أو العصا والغرض من ذلك كله استكمال مايكون الخطيب به اكثر تأثيراً وتكون النفوس لقوله اكثر قبولا

الخطابة والشعر

ولم تقم الخطابة للشعر فى الجاهلية وما زال الشاعر عندهم أكثر فضلا وأرفع شأناً من الخطيب وإن كان لبعض خطبائهم ذكر وحرمة لم ينلهما شاعر ورغم ذلك كان الشأن فى الجملة للشعر ومازال الأمر كذلك حتى افضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وانتجعوا به أقاصى البلاد ووضعوه عند الملوك والسوقة فاستخذى منه الاشراف وتحاماه السادة ونبهت الخطابة بعض نباهة ومع ذلك فما بذت الشعر ولا قامت له وبقى الشعراء على هذا أسير ذكراً وأعز جانبا حتى جاء الاسلام واشتغل الناس بما سحرهم من بيانه فسكتوا حيناً عن الشعر وحينئذ عظمت الخطابة ولم يستطع فى ذلك الصدر أن يقوم لها الشعر .

الشعر

تمهيد : قد يتعذر على الباحثين أن يهتدوا بين ثنايا الاحقاب الى الوقت الذى يؤرخون به مولد هذا الفن الجميل فى لغات الانسان ومن المحقق أن الزمان دار بعينيه فيما حوله فاذا هو يرى الانسان وهذه الطبيعة الساحرة تخطر بين يديه فى ردائها المرقش فتلهم طبعه أسرار ما استودعته من محاسن هذه الحياة حتي شاقه ذلك إلى التغنى ببدائع مارسمته يمين القدر على صحائف الوجود من لطيف الأثر . وكانت هذه الفطرة الشاعرة تختمر فى صدره وتتمائل الى الكمال فى نفسه حتى غلبته على احتماله وتبدت فى ذلك المثال العذب من جمال الادب علي لسانه . وإذا الغناء والشعر يحلقان كزوجى الطائر فوق رؤوس الربي

وبين خمائل الزهر يتناغيان بنجوي النفوس ويوقعان على أوتار الأفئدة وقد ضاعت أوائلهما من حساب الزمن كما اختفت عن عينيه أوليات كثير من الاحداث التاريخية كاصطناع الثياب واتخاذ الابنية واستيقاد النيران وأشباه ذلك مما فطن الانسان الى استنباطه بفضل حيلته واهتدى بقوه الحاجة إليه . وكان الشعر باعتبار أنه شعور منبعث عن النفس ووجدان طبيعى فى تركيب الخلقة شبيها بحلاوة الحلوق التى هى أساس لحون الغناء كلاهما قديم على الزمن وهو بهذه المثابة لايتميز عن النثر بل هو من قبيل ماسماه المتأخرون من أهل الادب بالشعر المنثور وإنما حدث للانسان اصطناع اقيسة الغناء واختراع أوزان الشعر فى دهر متأخر وصلت فيه اللغات الى مدى من الرقى يساير هذين الفنين إلى ما يحوزهما من نظام الكلام ، وهكذا مشى الشعر يتسرب فى أعقاب العصور حتى ظهر أيضا على غفلة من التاريخ فى هذه البادية العربية فرتع ماشاء الله بين آفاقها المجلوة وسمائها الصافية ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحة ناصعة حليت بها صدور الاسفار وتمثلتها الاجيال بعد الاجيال عليها تماثيل الحياة الجافيه البدوية فيما بقى من هذا الشعر الجاهلى الذى آن أن نفصل القول فيه ومن الله التوفيق .

الشعر الجاهلى

والعرب تعده من الفنون الجميلة التى يسمونها الآداب الرفيعة وقد اختلف العلماء فى تعريفه فمنهم من جعله كلاما وأجوده أشعره . ولم يشترط له وزنا ولا قافية ويدخل فيه حينئذ مايشبه أن يسمى شعراً منثورا من حكمة أو مثل يبنيان غالبا على صواب التشبيه وايجاز اللفظ ولطف التصور ومنهم من اشترط فيه الوزن دون القافية ومنهم من جعله موزونا مقفى وأجاز تعدد القافية والجمهور

على اشتراط الوزن ووحدة القافية . قال صاحب المقدمة (الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها عما قبله وبعده الجارى على أساليب العرب المخصوصة)

وهم وان اختلفوا كما رأيت فى تعريف الشعر متفقون جميعا على أنه لا يكون شعرا إلا إذا كان صادرا عن الطبع ومتصلا بهذا البهاء من جمال الفن ولطف التخيل وإلا فهو نظم لاغير وإذا كان المصور البارع يعرض عليك الصورة من نقشه فتأخذها عينك وتحيرك فيما تستحسن منها أو تدع فكذلك الشاعر يحمل إلى خيالك فى تماثيل ألفاظه صور الاشياء متجلية فى أزيائها الطبيعية حتى لتكاد تراها ماثلة بين عينيك . ذلك هو الشعر يتحدث عن الرياض فيكاد يسطع طيبها ويصف الغانيات فيساقط عليك اللؤلؤ من حديثها ويحكى طراد الفرسان فتمسك جنبيك حذارا من وقع رماحها فهو أغنية الزمان وحلية هذا البيان

اولية الشعر العربى

يكاد الرأى يستقر على أن التاريخ المعروف للشعر الجاهلى الحديث ينسب أقدم مطولاته الى عدى بن ربيعة أخى كليب فى حرب البسوس التى أثارها مقتل أخيه بين بكر وتغلب . وينتهى أقدم مقطوعاته إلى شعراء آخرين منهم من عاصره وأكثرهم لا يبعدون عنه طويلا كدُوَيد بن زيد بن نهد والأَفْوه الأَوْدى وعمرو بن قَمِيئة وزهير بن جَناب الكلبى وأبى دُوَاد الايادى ومن غير المعقول أن يكون عدى والذين تبعوه كامرىء القيس وعَبِيد بن الابرص وطَرَفة وغيرهم هم الذين وثبوا هذه الوثبة بالشعر على تعدد قوافيه وتنوع أوزانه ونضوج صناعته إذ كان ذلك يحتاج إلى مراس قوى ودراسات طويلة

تتخرج فيها هـذه المواهب الفنية وتصل إلى مايتاح لها من درجات التكوين والتنقل بين أسباب النمو والارتقاء وان المتأمل فى قول امرىء القيس :

عوجا على الطلل المحيل لأننا ... نبكى الديار كما بكى ابن خزام

(وهو طائي قديم لايعرف عنه شيء فى غـير هـذا البيت) وفى قول زهير المزنى :

ما أرانا نقول إلا معارا ... أو معادا من قولنا مكررا

وقول عنترة :

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّم ... أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّم

ليعرف أن الشعر الجاهلى أقدم مما يظن بكثير وأنه تدرج من السجع الى الرجز ثم إلى المقطعات والقصيد ثم إلى هذه الضروب من الاوزان والقوافى قبل هذا العهد بزمن طويل . وإذا كان الباحثون إلى الآن لم يوفقوا إلى العلم بشيء من أولية الشعر وراء هذا التاريخ فمن العبث إذا محاولة الكلام فيما ينسب من الشعر إلى العرب البائدين وإلى الجن والملائكة وإلى آدم صلوات الله عليه وقد قال بن عباس رضى الله عنه (من زعم أن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله)

نشأة الشعر الجاهلى

قد بينا فيما سبق كيف كانت الطبيعة بمنزلة الاستاذ التاريخى الذى يرجع اليه أكثر الفضل فى اهتداء الانسان الى كثير من معارفه الضرورية الاولى وما كان العربي إلا انسانا كغيره من أجناس البشر له حس وفيه عاطفة وبين جنبيه نفس متأثرة تحب الجمال وقد طال أصغاؤها لهذه الاغانى الطبيعية المترددة فى أسجاع الطيور وحنين الابل وتناوح الرياح فما هو الا أن حكى صداها وشدا معها وصار وترا آخر من أوتارها دعته تكاليف العيش فى تلك البادية

الفاحلة إلى قطع المسافات الطويلة وهو على ظهر راحلته فى مثل أرجوحة الطفل ترقصه تلك الايقاعات المتوالية التى أخذ يلقى على ضروبها من ألحانه الساذجة حداء لناقته وأنيسا له فى وحشته الى أن هدته تلك النفس الشاعرة إلى لون من الكلام المؤلف الموزون على هذه المقاطع المتساوية يوشك أن يكون هو الرجز الذى لو تأملته فى تقطيعه وتفاعيله لوجدته أكثر شىء شبها وأشده مساواة لحركات الابل فى اهتزازها ومسافات سيرها ثم جعل ذلك الميزان الجديد من الكلام يطربه ويستولى عليه فألفه وأخذ يزيد فيه ويحتفل فى تأليفه ومضت طفولته مع الزمن فنهض إلى صباه وقام ينبعث مع الحياة على قدميه وتنازعته حينئذ الالسنة استحلاء لموقعه واسترواحا للراحة من التغنى به فتفتحت له عيون وتخلقت أوزان وأوشك أن يكون صناعة فنية آخذة كسائر الصناعات طريقها إلى النضوج ومتمشية إلى ماتهيأ لها من الكمال وساعد على ذلك مافى هذه النفوس العربية من لطافة الفطرة وصفاءالقريحةوقوةالاستعداد وكذلك دعتهم حاجتهم الى الأخذ بنصيب من الجمال أن يبتغوا ذلك فى حسن التعبير وجمال الكلام إذ كانت آفاق بلادهم فقيرة من تلك الالوان الزاهيةلجمال الطبيعة من بحار وجزر وجبال وأنهار وحقول وخمائل فكان طبيعيا أن يقضوا هذا الارب فى جمال الشعر فأرهفوا له الالسنة وشحذوا به العقول وما لبثوا أن ملأوا به الحياة البدوية فصار ديوان تاريخ وسجل حكمة وينبوع جمال وعلى ذلك أكثر (١) الباحثين فى نشأة الشعر الجاهلى الذى هو بعد هذا يعد أشهي ثمرات العبقرية العربية فى هذا العصر الجاهلى

---

(١) ذلك ومن المؤرخين من يجعل مبدأه السجع وهو كما تعلمون قسم من المنثور ويقول بهذا الرأى بعض كبار المتعربة من علماء الالمان كجلد زهر وبروكلمان وفى معجم المراجع لهذا العالم ان ذلك أيضا كان شأن الشعر عند الاحباش وهم أقرب أقرباء العرب وعند غيرهم من الامم القديمة وهو يؤيد ماذهبنا اليه من أسبقية النثر فى الميلاد عن الشعر كما يتناقى غير هذا المكان

شاعرية العرب

وما كان للناس عجباً أن يمتاز العرب بهذا الشعر وأن يفوقوا فيه سائر الامم . وأن يقوله منهم الرجال والنساء والسادة والصعاليك والرعاة واللصوص إذ لم يعرف عنهم أنهم يميلون الى الفلسفة أو ينشطون لتعلم العلوم أو مزاولة الصناعات . وانما كانت صناعتهم وانما كان اهتمامهم مصروفين الى هذا الفن الجميل من الكلام ولم يزد ماأثر عنهم من ضروب الحكم على أن يكون فى جملته أشبه بالحقائق المجردة التى لاتبتعد عن متنـاول الفطرة وانتاج التجربة والمشاهدة وكان الذى أعان هذه الموهبة الفنية على مثل هذا الانتاج الغزير أولا هذه اللغة العربية التى هى باجماع علماء اللغات لغة شعرية غنائية ذات جرس ورنين فى مفرداتها وتراكيبها غنية بما فيها من دقة التعبير وأساليب الكنايات وكثرة الترادف المعينة على تنويع القافية وتسهيل النظم وثانياً تلك الحياة البدوية وهذا أمر له خطره فان من شأن تلك الحياة أنها تجعل الطبائع البشرية أقوى وجوداً وأشد التهاباً وأكثر تأثراً يهيجها الحب ويطيش بها الغضب وتهزها الرغبة ويثيرها الطرب وهذه كلها تعتبر من أقوى فواعل الشعر ودواعيه .

وإذا لم يـكن للعربي كما قدمنا من الصناعات ما يشغله عن التفرغ لهذا الفن والانقطاع لاتقان صناعته فقد كان ذلك سبيل التجويد وذريعة الكمال والارتقاء مع ماكان فى هذه النفس العربية من صفاء وما كان فى تلك العواطف البدوية من قوة وما تأثرت به من طول التأمل فى المشاهدة الطائفة بها وما كان يدفع العربى فى هذه البادية إلى المحاماة عن النفس والدفاع عن الذمار من الانتصار بالعصبية التى صار الشعر عندهم من أقوى أدواتها وأوثق أسبابها وأصبح الشاعر بينهم صاحب المقام الأعلى فى إثارة الحروب واطفاء الفتن والتنويه بمفاخر

القبيلة فأنتجت لهم هذه الحياة الخاصة من الشعر مالم تفقهم فيه أمة من الأمم ولولا ماعدا على هذا التراث الأدبي من عوادي الضياع كشيوع الامية وموت كثير من الحفاظ فى المغازى والفتوح الاسلامية لبلغنا منه الخير الجم والشعر الكثير وقد قال أبو عمرو بن العلاء (مابلغكم مما قالت العرب من الشعر إلا أقله ولو جاءكم وافرا لبلغكم منه علم وشعر كثير.)

طبيعة هذا الشعر ونوعه (١)

يقول بعض الغلاة من المستشرقين إن فكرة التوحيد نشأت عند العربي من وحدة الحياة فى أفقه وذلك أنه على زعمهم عاش فى حياة جامدة قليلة التنوع تسير على وتيرة واحدة هى التى أكسبته هذه السذاجه فى تصوره وأساليب حياته

فهو قد قضى دهراً طويلا فى هذه البادية الجرداء لم يرفيها من حلى الارض إلا ذلك النخل المصعد وتلك الصحراء المحرقة فأثر ذلك اللون الثابت من ألوان الطبيعة فى خياله وانتاج نفسه إذ كان الاجتماع يصور الشاعر ـ والشاعر كما يقولون صورة من الاجتماع ـ حتى صار قليل الميل إلى التحول شديد الاعجاب بالنفس والايثار للوطن والرضا بما لديه على مافى ذلك من شظف وسوء عيش وكان طبيعيا أن يكون مستقر الفكر غير نزاع الى الاستقصاء والتعمق فى البحث وألا يكون له ذلك القلق العقلى ولا تلك الحيره الفكرية التى تدعو صاحبها إلى الدخول فى أعماق الاشياء والتغلغل فى أسرار الكون وكان لهذا الاعتبار أثره الظاهر فى قصر الخيال عند العرب لانتهائهم الى تصور الاشياء

---

(١) رجعنا فى تأليف هذا الفصل الى كتاب الشهاب الراصد لواضعه العالم الجليل الاستاذ لطفى جمعه الكاتب المعروف

من هذه الطريق الفطرية البعيدة عن الاستقصاء والبحث فلم يكونوا لذلك أهل أساطير ولا أصحاب قصص يحتاج إلى مثل ذلك الخيال البعيد وهذا النفس الممتد الطويل ولا نعني بقولنا الخيال ذلك الذي ينبني على نقل صورة من وضع إلى مايشبهه لعلاقة بينهما مما يسمى تشبيها أو مجازاً وأنما هو ذلك الانطلاق الفكرى وراء تصور الاشياء وتلوينها بألوان من الوهم قد لا يكون لها فى الواقع وجود كالخرافات والاساطير اليونانية التى هى ثمرة من ثمار العقل الحائر والفكرة المتحركة الجائلة بل إن العرب زادوا على هذا أيضا أنهم عمدوا إلى الاختصار والايجاز فضمنوا الجملة القصيرة من ضروب الحكمة وساقوا المعاني الكثيرة فى الالفاظ اليسيرة حتى جعلوا البيت الواحد من الشعر قائماً بمعناه مستقلا عما قبله وبعده وكان الشعر أفضل آثار العقول وخير ثمار الالسنة فتجلت فيه هذه النزعة الفطريه الساذجة وأظهرت منه البديهة والارتجال ذلك المدى القصير من جولة الفكر وعمل الروية ونحن نقول إن هذا الكلام وإن كان فى جملته صحيحاً إلا أن فيه مبالغة وتحاملا ظاهرا تستطيع أن تلمسه فى هذه المحاولة التى يقصد منها تهجين هذه العقيدة الصادرة عن دين صحيح لان أمما أخرى سامية كانت تقول بتوحيد الخالق قبل العرب وكانت تعيش فى ريف خصيب وطبيعة متنوعة وحضارة قديمة معروفة ولان العرب تصوروا كما تصور اليونان آلهة كثيرة نصبوا لها الانصاب والتمسوا بها الزلفى وسموا أنفسها باسمائهم كيغوث ويعوق والعزى ومناة الثالثة الاخرى وتصوروا فوق ذلك أرواحا خفية من الجن كانت توحى اليهم عبقريتهم الشعرية كما سنفصل ذلك بعد. ولكننا مع ذلك نرى من الحق أن نعترف بأن الشعر العربي لم يكن شعرا قصصيا بالمعنى المفهوم عند الأمم الآرية أو الأوربية الحديثة لأن ذلك يعتمد فى جوهره على سعة القافية وطول القصيدة إلى حد لم يألفه العرب ولم يعرفوه إذ قد تبلغ القصيدة

الواحدة آلافا من الابيات وهو يذكر الوقائع والعادات ويصور الشعوب ويصف أحوال الاجتماع وسير الابطال ويذكر الآلهة ويستوحيهم الكلام وجمال الألهام والحق أن الشعر العربى لم يكن فيه قصص بهذا المعنى وإن كان فيه قصص فهو بغير هذا اللون المفهوم عند غيرهم من الأمم الاخرى وكذلك لم يكن فيه شعر تمثيلى من شأنه أن يعتمد على المحاورة بين قائلين وأكثر من قائلين ويختلط بحركات جوارحهم ومجموع هيئاتهم وشمائلهم وأغانيهم وليس لنا أيضا مثل هذا النمط من الكلام فى الشعر العربى ولكن أيغض ذلك من الشعر العربى أو ينقص من بهائه وجمال ألوانه ؟ كلا . ولو عرفت العرب هذا القصص وهذا التمثيل لأخرجوا منه للناس عجبا وهم الذين حين جمعهم الملك واستوت لهم الحضارة وثبوا على آداب الفرس وفلسفة اليونان وأنظمة الرومان فخلطوا ذلك بلغتهم وآدابهم وصيروا منه مزاجا بديعا تنورت به مدنيات العالم الحديثة إبان عصورها المظلمة فالشعر العربي شعر غنائى غنى بوفرة أوزانه وتعدد قوافيه وجداني يصف آثار النفوس وصور العواطف المستمدة من الاحساسات النفسية ويتناول طبائع الاشياء من حيث هى من غير مبالغة ولا اسراف ويعتمد على الحقائق الثابتة البريئة من تكلف الاختلاق والكذب اللذين هما فى الغالب عتاد القصاصين وأصحاب الخرافات من الاساطير وهو فى مجموعه مظهر من مظاهر الاجتماع العربى فيه مسحة البادية وعلى مخايله كثير من آثار الاعراب وهو شعر فطرى فى معانيه التى هى حقائق مكشوفة لايعالج الفكر عناء كبيرا فى انتزاعها من معادنها الطبيعية وربما كانت هذه السذاجة فى تركيبه واستنباط معانيه هى سر مافيه من المتانة وخفة الظل والموافقة لكثير من الطباع.

تنقل الشعر في القبائل

والقرابة بين الشعراء

ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي فى كتاب طبقات الشعراء وذكر غيره من المؤلفين أن الشعر كان أولا فى ربيعة وهى شعوب وقبائل كثيرة منها بكر وتَغْلب وعبد القَيْس والنمِر بن قاسط ويَشْكر وعِجْل وجُلَيم وضُبَيْعة وشيبان وذُهْل وسَدوس وكانوا يقيمون قديما فى اليمن ثم فى نجد ثم نزحت بكر وتغلب نحو العراق ونبغ منهم وهم فى نجد المهلهل وهو عدى بن ربيعة أخو كليب ومن شعرائهم المرقش الاكبر وهو عمرو بن سعد وقيل عوف بن سعد شاعر قديم يقال إنه نشأ فى ربيعة قبل خروجها من اليمن والمرقش الاصغر وهو أشعر المرقشين واسمه عمرو بن حرملة وهو عم طرفة بن العبد ومنهم سعد بن مالك وعمرو بن قميئة ويقال انه أخو المرقش الاكبر أو ابن أخيه وطرفة بن العبد والمتلمس وهو خال طرفة واسمه جرير بن عبد المسيح والحارث ابن حلزة والاعشى وهو ميمون بن قيس وخاله المسيب ابن علس واسمه زهير وعمرو بن كلثوم التغلبي — ثم تحول الشعر فى قيس وهى قيس عيلان ومن بطونها عبس وذبيان وغطفان وهوازن وسليم وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة ونمير وجعدة وقشير وعقيل وكانت هذه القبائل فى نجد وأعالى الحجاز ومن شعرائها النابغتان الذبيانى والجعدى والثاني منهما مخضرم أدرك الاسلام ويقال أنه كان أسن من النابغة الذبياني ومنهم زهير بن أبى سلمى المزنى وكعب

ابنه ولبيد بن ربيعة العامرى والحطيئة والشماخ واسمه معقل بن ضرار وعنترة العبسى. ثم استقر الشعر فى تميم وهى قبيلة كبيرة من مضر ، من بطونها مازن ودارم ويربوع ومجاشع ومالك وبهدلة وكانت تميم فى تهامة ثم نزحت فى أواسط القرن الثاني قبل الهجرة الى بادية العراق ومايليها جنوبا ومنهم أوس بن حجر وكان شاعر مضر فى الجاهلية غير مدافع. ثم ظهر الشعر بعد ذلك فى بطون مدركة وهى هذيل وأسد وكنانة وقريش والدُّئِل وكل هؤلاء من أهل البادية . وأما الحواضر فكانت قليلة فى بلاد العرب وهى مكة والمدينة والطائف ولم ينبغ منها شعراء كثيرون وعندهم أن أشعر أهل المدر فى الجاهلية حسان ابن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لكل شاعر راوية يحفظ شعره ويذيعه فى القبائل فيتناشده الرجال والولدان فى أسمارهم وأنديتهم وتتغنى به الركبان والرعاة ويأنس به المدلج فى ظلمة الليل وينشده الماتح على البئر ومن هذا وأشباهه سار الشعر فى الآفاق وغلب على أكثر أهل البادية حتى لتكاد تحسبهم كلهم شعراء

فنون الشعر

يذكر العلماء فنون الشعر وهم يقصدون بها تلك الانواع المبثوثة فى تضاعيف الكتب من المدح والحماسة والفخر والنسيب والوصف والاعتذار والحكم والهجاء ومنهم من يدخل بعض هذه الانواع فى بعض فيجعل الرثاء والفخر والنسيب داخلة فى باب المديح . بل منهم من يجعل الشعر كله قائما على المدح والهجاء لاغير ولكن الحق أن بعض هذه المقامات يختلف عن بعض وان الرثاء مثلا وان كان فيه ذكر مامدح المرثى غير أن ذلك فى الجملة منحرف عن قصد الشاعر حين تتصدع نفسه ويضرب الهم بين جوانحه ويكون

همه الشكوى من الدهر والبكاء لفقد الحميم وكذلك فى النسيب وغيره مما ذكرناه

ومما يحسن التنبيه اليه هنا أن هذه الانواع لا ينبغى أن تكون هى ضروب الشعر أو أقسامه فى ذاته ولكنها أنواع لفن واحد منه كما أسلفنا هو ذلك الشعر الغنائى الذى يتحدث عن عواطف النفوس وما يحيط بها من مظاهر هذه الطبيعة الفطرية فى اخلاص وصدق وسذاجة هى سرما فيه من جمال وظل أو من طريق اخر هى أنواع ذلك الشعر العربي التى ستورد عليك منها ما يجعل هذه الدعوى تستقر فى نفسك ان شاء الله

فقد كان العربى يفتخر بنفسه وقومه فلا يدعوه الاسراف ولا يجره الغلو الى وصف نفسه بما ليس فيه وانما يذكر الاسراع الى الصريخ والصبر عند اللقاء ويذكر الخيل والسلاح والغناء فى الحرب واعتبر ذلك فى قول ودّاك بن ثُميل المازني فى يوم كان لهم على شيبان

رُوَيْدَ بنى شيبان بعض وعيدكم	تلاقوا غداً خيلى على سَفَوان[1]
تلاقوا جياداً لا تَحيد عن الوغى	إذا ماغدت فى المأزق[2] المتداني
عليها الكماة الغُرُّ من آل مازن	لُيوثُ طعان عند كل طعان
مقاديم وصّالون فى الروع خطوهم	بكل رقيق الشفْرتين يمان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم	لأيّة حرب أم بأى مكان

فأنت ترى كيف انتزع هذا الشاعر مفاخره من هذه المظاهر البدوية الصادقة ولم يدع فيها ما ادعاه ابن سناءِ المُلْك بعد هذا العصر من مغالبة الدهر واختراع الكذب إذ يقول

---

١ اسم ماء كانت عنده الوقعة ٢ المكان الضيق من أزق كفرح وضرب ٣ واحده كمى وهو الشجاع أو لابس السلاح .

توقد عزمي يترك الماءَ جمرةً وحيلة حلمي تترك السيف مبردا

ولو مد نحوي حادث الدهر كفه لحدثتُ نفسي أن أمدَّ له يدا

وانك عبدي يازمان وانني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

وكانوا يمدحون فلا يبالغون في رفعة الممدوح وانما يؤثرون إصابة الصواب ويحفلون للحقائق ككل الأمم البدوية التي لم تتلوث طباعها بكاذيب المدنية وأنظر الى ذلك في قول زهير بن أبي سلمى في حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري

وأبيض فيّاض يداه غمامة على معتفيه[1] ما تغب[2] فواضله

بكرتُ عليه غدوةً فرأيته قعودا لديه بالصريم[3] عواذله

يفدّينه طوراً وطوراً يلمنه وأعيا فما يدرين أين مخاتله

فأقصرن منه عن كريم مرزإٍ عزوم على الامر الذي هو فاعله

أخي ثقة لا تُتلفُ الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وكم بين هذا وبين قول على بن جبلة وهو العكوك في بعض الامراء العباسيين

أنت الذي تنزل الايام منزلها وتنقل الدهر من حال الى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

وكانوا اذا هجوا تباعدوا عن الهجر وعفوا عن ذكر السوءات وانما يتهاجون بالعجز عن اكتساب المحامد والتشبه بالاَباء وبالنقص من صفات المرءوة والنجدة ومن أمثلة ذلك قول قريط بن أنيف العنبري يهجو قومه ويخلط ذلك بمدح أعدائهم ليكون ذلك أبلغ في غيظ صدورهم يقول :

---

١ المعتفي — الطالب للمعروف — ٢ تغب — تنقطع — ٣ الصريم القصر أو الصباح

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر ابدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحدانا

ثم يقول :

لكن قومي وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لى بهم قوما اذا ركبوا شدّوا الاغارة فرسانا وركبانا

ويرثون فلا يزعمون أن السماء قد وقعت على الارض وأن الافلاك تحيرت فى مدارجها وانما يكون فى المرثى صبره فى المكروه ووفاءه فى الملمات وحفظه للعواقب كما يقول دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله :

فان يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
كميش الازار خارج نصف ساقه بعيد من الآفات طلاّع أنجد
قليل التشكى للمصيبات حافظ من اليوم أعقاب الاحاديث فى غد
وهون وجدى اننى لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

واذا اعتذروا من ذنب أو تنصلوا من هفوة تلطفوا فى الدعاء الى العفو وتقدموا بأدب العتب المزوج بالخوف من الوعيد والقلق من موجدة المعتذر اليه ، وفارس هذه الحلبة فى الجاهلية النابغة فى النعمانيات التى منها :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد
فلا لعمر الذى طيفت بكعبته وما هريق على الانصاب من جسد
ماقلت من سيّىء مما أتيت به إذاً فلا رفعت سوطى إلى يدي
إذا فعاقبنى ربى معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالحسد

وقد بالغوا فى باب الوصف وأكثروا منه فوصفوا ديارهم ومواردهم وما كان فى باديتهم من نبات ووحش وطير ، ووصفوا الخيل والابل والسماء والرياح والمطر ، وكانت المرأة أنفس مظاهر الجمال عندهم فهاموا بها ووصفوا محاسنها وتقدموا بذكرها فى مفاتح الكلام حتى عند الرثاء والفخر وتحدثوا اليها بما يجيش فى صدورهم وشبهوها بالظبية والمهاة والماء والشمس والنار وما كان الوصف يزيد فى بيانهم على انتزاع الحقائق من معادنها محلاة بألوانها الطبيعية فيما كانوا يستخرجونه من بيئة البادية ومظاهر هذه الحياة العربية من حرب وسلم وظعن واقامة ، ويقول طرفة بن العبد وهو أحد الوصافين للابل من معلقته المشهورة :

وانى لأُمضى الهمّ عند احتضاره ... بعَوجاء[1] مِرْقال[2] تروح وتغتدى

أمون كألواح[3] الاران[4] نسأتها[5] ... على لاحب[6] كأنه ظهر بُرْجُدِ[7]

جماليّة[8] وجْناء[9] تردِى[10] كأنها ... سَفَنَّجَة[11] تبرى لأزْعَرَ أرْبَدِ[11]

لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد[12]

وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وعى الملتقى منها الى حرف مبرد[13]

وخد كقرطاس الشآمى ومشفرٍ ... كسبت اليمانى قده لم يجرد[14]

ويقول العبسى فى وصف روضة استطرد الى ذكرها من التشبيب بصاحبته

---

(١) العوجاء الناقة لاتستقيم فى سيرها لنشاطها (٢) المرقال مبالغة من الارقال لضرب من السير (٣) أمون ـ مأمونة العثار (٤) الاران كتابوت العظيم (٥) نسأتها ضربتها بالعصا (٦) لاحب أى طريق واضح (٧) البرجد كساء مخطط (٨) جمالية أى تشبه الجمل فى وثاقة الخلق (٩) الوجناء المكتنزة أو العظيمة الوجنات (١٠) الرديان ضرب من السير أيضا (١١) السفنجة النعامة ـ الازعر القصير الشعر الاربد الذى لونه يشبه التراب ويقصد به الظليم (١٢) النحض اللحم (١٣) العلاة السندان ـ وعى اجتمع (١٤) السبت الجلد المدبوغ ـ يجرد يموج

إذ تستبيك بذى غروب واضح ... عذب مقبله لذيذ المطعم [١]

وكأن فارة تاجر بقسيمة ... سبقت عوارضها اليك من الفم [٢]

أوروضة أنفاً تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم [٣]

جادت عليه كل عين ثرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم [٤]

سحاً وتسكاباً فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم يتصرم

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الاجذم [٥]

ولا ترى أبدع من رقه هذا العربي فى وصف فرسه حين أزور من كثرة ما ناله من أرماح الاعداء إذ يقول

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم [٦]

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الادهم [٧]

مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم [٨]

فأزور من وقع القنا بلبانه ... وشكا الى بعبرة وتحمحم [٩]

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

ولعنترة بن الاخرس يصف ثعبانا

لعلك تمنى من أراقم أرضنا ... بارقم يسقى السم من كل منطف [١٠]

---

(١) الاستباء الاسر ــ الغروب جمع غرب وهو الحد ــ ٢ الفارة حقة المسك ٣ الروضة الانف التى لم ترع بعد والدمن السرجين ٤ العين المطر يدوم أياما ــ الثرة الكثير الماء ٥ الاجذم المقطوع اليدين ٦ يتذامرون يتحاضون على القتال ٧ الاشطان الحبال جمع شطن واللبان الصدر ٨ الثغرة كالنقرة وزناومعنى الازورار الميل والتحمحم صهيل فيه حنين ٩ الارقم أخبث الحياة واطلبها للناس ــ المنطف ــ مكان من نطف أى سال والمراد منه هنا موضع السم الخالص

تراه بأجواز الهشيم كأنما   على متنه أخلاقُ برد مفوف[١]

كأن بضاحى جلده وسراته   وجمع ليتيه تهاويل زخرف[٢]

كأن مثنى نسعة تحت حلقه   بما قد طوى من جلده المتغضف

ويقول الاعشى يصف فرسا

ولقد اغتدى اذا صقع الديكُ   بمهر مشذب جوال[٣]

مُدمج سابغ الضلوع طويل الشخص   عَبل الشوى مُمر الاعالى[٤]

يملأ العين عاديا ومَقودا   ومُعرى وصافنا فى الجلال[٥]

مستخفا على القياد ذفيفا   تم حُسنا فصار كالتمثال[٦]

ومن ألطف ماقيل فى وصف القوم عند تبييت العزم على الارتحال وتصايحهم وتناديهم عند الاصباح واختلاط أصواتهم حينئذ بأصوات الخيل ولجب المتاع قول الحارث بن حلزة

أجمعوا أمرهم عشاء فلما   أصبحوا أصبحت لهم ضَوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصها   ل خيل خلال ذاك رغاء

ومن قول طرفة بن العبد فى وصف نداماه ومغنيته

نداماى بيضٌ كالنجوم وقينة   تروح علينا بين برد ومجسد[٧]

اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها   تجاوب اظآر على ربع ردى

اذا قلت هاتي اسمعينا انبرت لنا   على رسلها مطروفة لم تشدد[٨]

---

(١) الاجواز جمع جوز هو الوسط . الهشيم اليابس المتكسر من النبات والشجر المتن الظهر والمفوف المنقوش

(٢) السراة الظهر والليتان عرقان فى جانبي العنق - التهاويل النقوش - الزخرف الزينة والجنس ٣ النسعه سير من جلد ينسج عريضا - المتغضف المتثنى ٤ صقع صاح - مشذب كمهذب ٥ المدمج المحكم - سابغ عظيم - الشوى الاطراف الممر المفتول ٦ الصافن الذى يثنى سنبكه ٧ الذفيف النشيط الحاد ٨ القينة الجارية المغنية والمجسد المصبوغ بالجساد وهو صبغ ٩ الاظآر جمع ظئر وهى المرضعة من الابل والنساء - والربع كصرد الفصيل والردى الهالك

كيف ترون انه كان فى تشبيه نغمة المرأة بحنين الابل المتجاوبة على فصيل هالك جافيا بدويا وهو فى هذا الموضع قد كان يحذر على الاختراع والمبالغة إلا أنه كالمقل ينفق مما فى يده

ويقول لبيد فى وصف بقرة وحشية وفيها أيضا وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها بعد أن خلص من صفة أتان وحشية بلغ غاية فى الغرابة

أفتلك أم وحشية مَسبوعة ... خُذِلَت وهادية الصِّوار قِوامها[1]
خَنساء ضيعت الفرير فلم يَرِمْ ... عُرضَ الشقائق طوفُها وبُغامها[2]
لِمُعَفَّرٍ قهد تنازع شِلْوه ... غُبْس كواسِبُ ما يُمَنُّ طعامُها[3]
صادفن منها غِرَّة فأصبْنَها ... ان المنايا لا تطيش سهامها

إلى أن يقول :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا ... غُضْفاً دَواجِنَ قافلا أعْصامُها[4]
فلَحِقْن واعتَكَرَتْ لها مَدْرِيَّةٌ ... كالسَّمهرية حَدُّها وتَمامها[5]
لتَذُودَهن وأيقنت ان لم تَذُد ... ان قَدْ أَحَمَّ مع الحتوف حمامها
فتَقَصَّدت منها كَسابِ وضُرِّجت ... بدم وغُودِر فى المَكَرِّ سُخامها[6]

---

(١) المسبوعة التى أصابها السبع ـ الهادية المتقدمة ـ والصوار القطيع من البقر (٢) الخنساء من الخنس وهو تأخر أرنبه الانف ـ الفرير ولد البقرة ـ يرم يبرح ـ الشقائق جمع شقيقة وهى أرض صلبة بين رملتين والبغام صوت رقيق

(٣) القهد الابيض ـ والشلو بقية الجسد أو العضو ـ والغبس جمع أغبس أو غبساء من الغبسة وهى لون يشبه الرماد ـ يمن أى يقطع (٤) الغضف المسترخية الآذان والدواجن المعلمات ـ قافلا ـ يابسا والاعصام العذبات تكون فى أعناق الكلاب الواحد عصمة وعصام (٥) اعتكرت عطفت ـ المدرية القرون (٦) وكساب اسم كلبة وكذلك سخام وتقصدت تعقبت وقتلت

وأما الغزل عندهم ، وأكثر الناس لايفرقون بينه وبين النسيب ولا التشبيب فهو باب واسع لم يخل منه فى الغالب مقام من مقامات الشعر لأن المرأة كما قدمنا كانت هى كل الجمال فى آفاق البادية فجعل العربي حديثه كله اليها فذكرها عند الافتخار ببلائه وكرمه وعند صبابته وعشقه وعند حله ورحلته وفى كل مقام وعلى كل حال وقد يكون من الخير لنا أن نذكر بقدر مانستطيع شيئا نجعله شبيها بالتحديد لهذه الكلمات العامة غير المضبوطة فى قولهم الغزل والنسيب والتشبيب ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث اليهن والعبث بذلك فى الكلام وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة وأما التشبيب فهو مايقصد اليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ومايضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الاطلال توخيا لتعليق القلوب وتقييد الاسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام ، وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى وما يعرض له من ذكر محاسن النساء وهو بلا شك مظهر الرقة وينبوع السلاسة فى الشعر العربي إذ كان حديثا عن هذه الآلام العذبة ودموعا تنحدر من أجفان الكلام ويقول الجرجاني فى الوساطة « وترى رقة الشعر إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك » وسنورد من ذلك طرفا — ولعله يعين على تحقيق ما أشرنا اليه — يقول عنترة العبسى فى معرض الذكرى وهى تهيج عواطف الشوق وتثير آثار الصبابة

سقتك ياعلم السعدى غادية ... من السحاب وروى ربعك المطر
كم ليلة قد قطعنا فيك صالحة ... رغيدة صفوها ماشابه كدر
مع فتية تتعاطى الكأس مترعة ... من خمرة كلهيب النار تزدهر
تديرها من بنات العرب جارية ... رشيقة القد فى أجفانها حور

إن عشت فهي التي ما عشت ما لكتي   وإن أمت فالليالي شأنها العبر

ولمالك بن الصمصامة وهو أحد الشعراء العشاق (وكان يهوى جنوب بنت محصن الجعدي وكان أخوها أحد الاشراف الفرسان فحلف لئن ذكرها مالك أو عرض بها في شعره ليقتلنه (وتروى هذه الأبيات لابن الدمينة)

أحب هبوط الواديين وإنني   لمشتهر بالواديين غريب

أحقا عباد الله ان لست غاديا   ولا رائحا إلا علي رقيب

ولا زائرا وحدي ولا في جماعة   من الناس إلا قيل انت مريب

وهل ريبة في ان تحن نجيبة   الى الفها أو ان يحن نجيب

ذلك وأكثر الناس لا يفرقون بين هذه الثلاثة وبعضها عندهم يخلف بعضاً . وقد قربنا لك على قدر اجتهادنا مسافة ما بينهما من خلاف على أن شيئ منهما لم يكن يوجد منحرفا عن غيره من أغراض الشعر في هذا العصر إلا م كان مثل هذا من قول شاعر عاشق ، لم يروله كلام في غير هذه الشكوى من لوعة الصبابة . وأما الحكمة فقد كان الكثير من شعرائهم نصيب منها كأمية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وطرفه بن العبد وغيرهم . ، وإن طويلة زهير التي مطلعها

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتثلم

لقد حليت بكثير من ضروب الحكمة كقوله

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

الى آخر ما قاله في ومن ومن ، ولطرفه من المعلقه أيضا قوله

ارى الموت أعداد النفوس ولا أري   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى   لكا لطول المرخى وثنياه باليد

متى ما يشأ يوما يقده لحتفه   ومن يك في حبل المنية ينقد

إلى قوله

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ومن أمثالهم فى الشعر قول الأسود : ـ

لاتقطعن ذنب الافعى وترسلها ان كنت شهماً فاتبع راسها الذنبا

وقول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

الشعر الجاهلى

والاجتماع العربى

لو استطاع المنقبون ان يستخرجوا آثار الأمم القديمة كالمصريين واليونان مما زينوا به معابدهم ونقشوه على صفائح قبورهم وقصورهم لقد يستطيع الباحث المنقب ان يرى مثل هذه الصورة أو قريبا منها فى ذلك السجل الباقى من تاريخ العرب فى الشعر الجاهلى . فهو القائم عندهم مقام الآثار المنقوشة والرقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ . وانك لتنظر فى صفحة الشعر الجاهلى فتنعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لتلك البادية العربية ترتسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم . وملاعب ولدانهم . وأسماء منازلهم . وموارد مياههم وأحاديث سادتهم ومنجبات نسائهم، وعتاق خيولهم ، وأوصاف سيوفهم وآلاتهم وكثيرا من أيامهم ووقائعهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم مما صح أن يتخذه المؤرخون مصدراً يعتمدون عليه فى وصف هذه الحياة الجاهلية ، فقد كان الشاعر يبدأ قصيدته بذكر الديار ومساءلة الأطلال ثم يصف هذه الاماكن ويذكر مواقعها

ويعرفها كما يفعل الباحثون فى علم تقويم البلدان . ألا ترون كيف فعل امرؤ القيس بعد قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ....

أنه يقول .... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

ونحن نذكر هنا نماذج من هذا الشعر هى التى أخذ التاريخ منها ما أخذ من هذه العادات والآداب وهى التى كانت فى مجموعها مظهرا صادقا لهذا الاجتماع العربي على وجه العموم : كان من عاداتهم فى الجاهلية أن يعقروا رواحلهم على قبور أبطالهم وسادتهم ، وقد مر حسان بن ثابت على قبر ربيعة ابن مكدم (وهو الشاب الذى يقال انه حمى ظعينته وهو ميت) فقال (وفى الاغاني ان الابيات لكرز بن حفص أو لضرار بن الخطاب الفهرى)

نفرت قلوصى من حجارة حرّة   بنيت على طلق اليدين وهوب

لولا السّفار وبعد خرق مهمه   لتركتها تحبو على العرقوب

وكان الساري إذا جنه الليل ولم يجد هدى نبح كما تنبح الكلاب فتنبح على نباحه فيهتدى بذلك الى مكان الحى ، ولهم فى ذلك أشعار كثيرة منها قول نابغة بنى جعدة :

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه	ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه	لينبح كلب أو ليفزع نوّم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى	له عند اتيان المهبّين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا	يكلمه من حبه وهو أعجم

١ القلوص من الابل الشابة الباقية على السير — الحرة أرض ذات حجارة والسفار مصدر سافر — والخرق القفر والارض الواسعة — والمهمه المفازة

وقد قدمنا لكم فى أيام العرب من الاشعار الدالة على اسماء هذه الوقائع من كلام مهلهل والأعشى وغيرهما فلا نطيل بذكر ذلك هنا ولم يكن لهم غنى عن ذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف مواقعها إذ كانت عزيزة نادرة فى هذه الصحراء القاحلة ، ويقول جابر بن الازرق وكان أبو عمرو بن العلاء يقرظ هذه الأبيات ويتعجب من حسنها

فيالهفَ نفسى كلما التَحت لوحة   على شربة من ماءأحواضِ مأرب

بقايا نطافٍ أودعَ الغيمُ صفوها   مُصَقَّلةَ الارجاء زُرْقَ المشارب

ترقرقَ دمعُ المزن فيهن والتَوتْ   عليهن أنفاسُ الرياح الغرائب

وكذلك كانوا يذكرون أسماء خيولهمالتي يدركون عليهاالاوتارويصولون بها فى الحروب كقول الحارث بن عُباد

قربا   مربط   النعامة   منى   لَقِحَتحربُوائلعنحِيَال

فى أبيات مشهورة وكقول غيره وهو خالد بن جعفر

فمن   يك   سائلا   عنى   فانى   وجَذْفةَ كالشَّجا تحت الوَريد

(حذفة فرسه) ويذكرون النساء النجيبات ويفخرون بولادتهن كقول لبيد (نحن بنى أم البنين الاربعة) فى رجز أنشده النعمان بن المنذر فنفره بهمن الربيع بن زياد العبسى وكان بينه وبين العامريين رهط لبيد شحناء فكسره بذلك لبيد ونفاه

ونجد فى الشعر الجاهلى مايدل على أن الحاجة كانت تدعوهم أحياناً إلى ركوب البحار وأنهم قد وصفوا سفنها ومن ذلك قول طرفة

كأن   حُدوجَ   المالكية   غُدوة   خلايا سَفينبالنَّواصفمن ددْ

١ الحدوج جمع حدج وهى من مراكب النساء — والخلايا جمع خلية وهي السفينة العظيمة — النواصف جمع ناصفة وهى أماكن متسعة من نواحى الاودية — ودد اسم واد

عدَوْلِيَّة أو من سفين بن يامن يجُور بها المَلاّح طوراً ويهتدى
يشق حُبَاب الماء حَيْزُومها بها كما قسم التربَ المُفايِلُ باليد

وما يدل كذلك على ظهور الكتابة عندهم كقول المرقش الاكبر

الدار وحش والرسوم كما رَقَّش فى ظهر الاديم قلم

وقول لبيد :

وجلا السيولُ عن الطول كأنها زُبُر تُجِدُّ متونَها أقلامُها

وكان من أشرافهم من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ومن هؤلاء قيس ابن عاصم المنقرى وهو الذى يقول

لعمرك ان الخمر مادمتَ شاربا لسالبة مالى ومذهبة عقلى
وتاركتى بين الضيوف قراهم ومورثة حرب الصديق بلا ذحل

وكان من عادتهم تعليق حلى النساء على اللديغ تفاؤلا له بالشفاء ومن ذلك قول النابغة .

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرُّقش فى أنيابها السّم ناقع[١]
يُسَهَّد من ليل التمّام سليمها لحلى النساء فى يديه قعاقع

وكان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته . ويدل عليه قول عمرو بن معديكرب فى امرأة أبيه حين كرهته من أبيات :

فلولا اخوتي وبنى منها ملأت لها بذي شطب يمينى

وكان فى جوف هذه الوثنية المظلمة من أدرك بثقوب رويته أن للخلق خالقا وأن لهم معادا ولأعمالهم حسابا ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

---

١ ساورتنى اى نازلتنى — والضئيلة الحية والرقش جمع رقشاء وهى حية ذات نقط فى لونها — وليل التمام كـكتاب الطول ليالى الشتاء

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ونحسب أن فى هذا القدر شفاء، ولعلنا نذكر من جملة ذلك شيئاً فى التعريف بالشعراء نجعله كالتتمة لهذا البحث إن شاء الله

تأثير الشعر – منزلة الشاعر – التكسب بالشعر

ومن جملة ما قدمناه تعلم كيف كانت منزلة الشعر من آدابهم وما كان للشاعر من المكانة فيهم حتى كانوا لا يهنئون الا بشاعر ينبغ أو فرس تنتج وكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أقبلت اليها وفود القبائل يهنئونها به وتتباشر الرجال والولدان وتصنع الأطعمة ويقبل النساء يلعبن بالمزاهر كما يفعلن فى الاعراس توقيراً للشعر واعتداداً بفضل الشاعر الذى هو لسانهم المدافع عنهم والمخلد لمفاخرهم. ولقد كان الشاعر يمدح الخامل المغمور فلا يزال قد رفعه وسير فى الآفاق ذكره وكان يهجو الشريف المذكور فيغض منه ويضعه.. وهذا المحلق الكلابى وهو عبد العزى بن عامر وكان رجلا كثير البنات سيء الحال قد كسدت بناته ورغبت عنهن الازواج لفقره قد مدحه الأعشى بقصيدته التى مطلعها

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي تعشق

ويقول منها:

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمو فانجد أقوام به ثم أعرقوا

وأن عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهن معلق

تري الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه كما زان متن الهندوانى رونق

يداه يدا صدق فكف مبيدة وأخرى اذا ما ضن بالمال تنفق

فسار ذكره وحسنت حاله وتزوجت بناته

وهجا حسان بن ثابت بنى عبد المدان وكانوا أشرافا طوال الاجسام بقوله

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ   جسم البغال وأحلام العصافير

فعيرهم الناس بذلك حتى قالوا والله ياأبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من طول أجسامنا بعد أن كنا نفتخر به على الناس) فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ثم قال فيهم :

وقد كنا نقول إذا رأينا   لذى جسم يعد وذى بيان

كأنك أيها المعطى بيانا   وجسما من بني عبد المدان

وذكر ابن رشيق فى العمدة أن هذا التأثير قد بقى بعد الاسلام قال .ولقد كان بنو أنف الناقة (وهم رهط من تميم لهم سؤدد وشرف) يفرقون من هذا الاسم ويسأل الرجل منهم عن نسبه فيقول من بنى قريع بن عوف . يتجاوز جعفرا أنف الناقة . الى أن نزل الحطيئة ببغيض بن عامر أحد رؤسائهم مغاضبا للزبرقان بن عمه فأحسن مثواه فقال فيهم :

سيرى أمام فان الاكثرين حصا   والاكرمين إذا ماينسبون أبا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يتطاولون على العرب بهذا النسب ويفتخرون به وكانت نمير احدى جمرات العرب اذا سئل الرجل منهم عن نسبه يقول نميرى ويمد بها صوته حتى صنع جرير قصيدته التى هجا بها عبيد بن حصين وهو الراعى النميري يقول منها :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فأخزاهم بذلك وأطفأ جمرتهم وصاروا بعد ذلك لاينتسبون الى نمير وإنما ينتسبون الى أبيه عامر بن صعصعة . وكان مولى لباهلة يردسوق البصرة

فيعبث به النميريون فعلمه مواليه البيت فاجتاز بهم بعد ذلك وأراد البيت فنسيه (فقال غمض والا جاءك ماتكره فانقطعوا عنه ومرت بجماعة منهم جارية فأحدوا اليها النظر فقالت والله يامعشر نمير ما امتثلتم فى واحدة من اثنتين لاقول الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولا قول الشاعر

فغض الطرف انك من نمير ... البيت ... فكأنما ألقمتهم حجرا

وكان بنو العجلان وهم رهط بن مقبل الشاعر يفخرون بلقب أبيهم هذا لزعمهم أنه انما سمى به لتعجيله القرى للأضياف فهجاهم النجاشى الشاعر واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسألهم ماذا قال فيهم فأنشدوه قوله

اذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر انما دعا عليكم ولعله لايجاب فقالوا انه قال

قبيلته لايغفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر ليت آل الخطاب كذلك ... قالوا انه قال

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر هذا أقل للسكاك يعنى الزحام ... قالوا انه قال

وما سمى العجلان الا لقوله خذالقعب وأحلب أيها العبد واعجل

ثم دعا عمر حسان بن ثابت وكان يعلم ماقال النجاشى الا أنه أراد أن يدرأ الحد بالشبهة فقال حسان انه قد سلح عليهم فحينئذ أمر به عمر الى السجن وكذلك فعل بالحطيئة حين هجا الزبرقان وهى احدى أوليات عمر فى استفتاء الخبراء وقد صارت من سنن الناس الى يومنا هذا

ذلك كان شأن الشعر وتلك كانت هيبة الشاعر ومكانته عند العرب وما كانوا فى ابان هذه النهضة الشعرية يقولون الشعر الا فى المقاصد النبيلة من

المدح العفيف والفخر الصادق ولم يقولوه تعرضا للصلات ولا تشفيا من الاشخاص حتى ظهر فيهم عبيد الشعر الذين أنحوا عليه بالتهذيب وتتبعوه بالصناعة والتنقيح استدرارا للمغانم وانتجاعا للكسب وطمعا فى جوائز الملوك . ومن هؤلاء النابغة مع ملوك الحيرة من المناذره ، وأبناء جفنة من ملوك الشام وكذلك حسان مع هؤلاء وهؤلاء وزهير مع هرم بن سنان والأعشى مع الملوك والسوقة فتطامنت بذلك منزلة الشعراء وترفع كثير من أشراف العرب عن الشعر لمكان هؤلاء ورغبوا عنه الى الخطابة وإن كان الشعر فى ذاته بقى صاحب الصولة على العقول كما قدمنا فى غير هذا المكان

طبقات الشعراء

أما من حيث الشعر والشهرة فالعلماء مختلفون فى ترتيب طبقاتهم وتقديم بعضهم على بعض ، ولكل واحد من الفحول جماعة تقدمه وتتعصب له . فعلماء البصرة مثلا يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الاعشى والحجازيون يقدمون زهيرا والنابغة . ولعلك لا تجد لهذا الخلاف كبير خطر إذ لم يجر قياس الأئمة بين هؤلاء الفحول على ناحية من النظر واحدة . فالذين قدموا امرأ القيس نظروا الى أوائله وسبقه والذين قدموا النابغة نظروا الى ديباجته واستوائه وذهب أصحاب الاعشى الى أنه أكثرهم طويلة جيدة ونظر أصحاب زهير الى حكمه وقلة معاظلته وفضوله . واذا يكون الخلاف لفظيا كما يقولون وقد جعل أبو عبيدة معمر بن المثنى شعراء الجاهلية ثلاث طبقات ووضع فى الطبقة الاولى امرأ القيس والنابغة وزهيرا وأسقط الاعشى وجعله فى الطبقة الثانية مع طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وجعل شعراء الطبقة

الثالثة عنترة وعروة ابن الورد ودريد بن الصمة وعمرو بن كلثوم والمرقش وحاتم الطائي . ونحن نذهب الى هذا الرأى لاختصاره

وأما الشعراء عامة من حيث عصور التاريخ فهم أربع طبقات الجاهليون المخضرمون (وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام وقالوا فيه الشعر) كحسان والحطيئة واذا لا ينبغى أن يكون لبيد من المخضرمين لانه وان أدرك الاسلام لكنه لم يقل فيه شعرا إلا بيتا أو بيتين ولعلهما قوله

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

أو قوله

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ثم الشعراء الاسلاميون الى أواخر العصر الاموى ، ثم المولدون وهم الذين فسدت سليقتهم باختلاطهم بشعوب الأمم الاخرى من الترك والفرس والمصريين وغيرهم من الدولة العباسية إلى ماشاء الله

وللعلماء تقسيم اخر للشعراء من حيث الشاعرية والاجادة ، فعندهم الشاعر الخنذيذ وهو الذى يجمع إلى جيده رواية الجيد من شعر غيره ثم الشاعر الفحل وهو الذى يجيد ولا يروى لغيره ثم شاعر فوق الردىء بدرجة وهو الوسط ثم شعرور أو شويعر ليس بشيء ، وعندهم أن الشعر والغناء والملح مما لا يحسن وسطه وانما يحسن طرفاه وهما الحار والبارد فجيد الشعر معجب ورديئه مضحك والوسط بين الحار والبارد ساقط وكذلك الغناء وكذلك النكتة تستخف الى السرور والعجب من طرفيها ووسطها فاتر لافضل فيه لسرور الاستحسان ولا لضحك الهزؤ والسخرية

شياطين الشعراء

يزعم العرب أنه كان لبعض الفحول من شعرائهم شياطين يلهمونهم هذه العبقرية فى كلامهم ونقل صاحب الجمهرة ان صاحب عبيد بن الابرص واسمه هبيد هو الذى لقنه قصيدة

طاف الخيال علينا ليلة الوادى   من أم عمرو ولم يلمم بميعاد

وهى التى يقول فيها :

لأعرفنك بعد الموت تندبنى   وفى حياتى ما زودتنى زادى

الخير أبقى وان طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وزعم أن للاعشى شيطانا اسمه مسحل ولامرىء القيس آخر اسمه لافظ وللنابغة صاحب اسمه هاذر ، وقد يكون ذلك جاريا على تصور الانسان لهذه الارواح الخفية وشدة قدرتها على مايعجز عنه البشر وان العرب لفرط كلفهم بالشعر وحبهم للابداع فيه نسبوا تلك الاشعار الى من هو فى ظنهم أقدر منهم على اختراع ما لايكاد يخطر على العقول البشرية . وقد قالوا فى كلمة عبقرى وهو الفائق أو غير المشارك فى أوصافه أنه منسوب الى عبقر وهم طائفة من الجن أو هو واد لهم استرجاحا لحسنه وتعجبا من فوقانه ، وليس العرب وحدهم من بين أمم العالم هم الذين كانوا يستلهمون الجن أو يعتقدون بوجودهم ، فمن قدماء الهنود طوائف كثيرة لم تكن تعتقد وجود هذه الجنيات فقط بل كانت فوق ذلك تعبدها عبادة ، وشعراء العالم القديم والحديث لايزالون يذكرون هذه الارواح الطيبة والخبيثة مما ينطبق عندنا على معنى الملك والجني ويستوحونهم مثل هذا الالهام فى أشعارهم ورواياتهم والقرآن يحدثنا عن هذه الارواح بسورة (قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن) فلم يبق من سبيل إذا إلى

استنكار هذه العجيبة وعدها من ضروب الخرافات كما يقول بعض المتعنتين، وقد حكى أن أبا السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى وضع كتابا فى الجن وأخبارها وحمله الى الرشيد فقال له فى بعض حديثه ان كنت رأيت ماذكرت فقد رأيت عجباً وان لم تكن رأيته فقد وضعت أدبا وظاهر من هذا الكلام أن الرشيد لم ينكر من الامر شيئا . على أن بعض أدباء العرب قد حاولوا تعليل هذا الضرب من الشعر الذى زعم بعض الاعراب انه للجن ومنهم أبو اسحق المتكلم من أصحاب الجاحظ وهو فى رأيه يبين كيف نشأت هذه الفكرة عند العرب قال

(ان اصل مايذكره بعض الاعراب من عزيف الجنان وتغول الغيلان أن العرب لما نزلت بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه فى الفلاة والخلاء والبعد من الانس استوحش ولا سيما مع قلة الاشغال والمذاكرين والوحدة لا تقطع أيامهم الا بالمنى وبالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسواس وقد ابتلى بذلك غير حاسب واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فرى مالا يرى ويسمع مالا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير انه عظيم جليل ثم جعلوا ماتصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك ايمانا ونشأ عليه الناشيء وربي به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة وعند صياح بوم أو مجاوبة صدى نجده وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور وربما كان فى الجنس وأصل الطبيعة نفاجا كذاباً وصاحب تشنيع وتهويل فيقول فى ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك فيقول قتلتها ثم يزيد فيقول

رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها . ومما زادهم فى هذا البـاب وأغراهم به ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الاخبار الا أعرابياً مثلهم وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التصديق أو التكذيب أو الشك . ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس » وهذا الكلام من أبى إسحق وان كان صادراً عن حس صادق وتمييز صحيح لايكاد يدفع وجود هذه العقيدة عند العرب ومهما بلغت هذه الاسباب من الصحة فلن تكون هى وحدها التى دعت العرب إلى الاعتقاد بوجود الجن بعد الذى قدمناه من البيان

المعلقات

أكثر الرواة على ان المعلقات سبع طوال امتازت عن شعر هذا العصر بامتداد القوافى وتنوع الاغراض وكثرة الاختراع، وأصحابها امرؤ القيس صاحب (قفا نبك) وطرفة صاحب (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وزهير بن أبى سلمى صاحب (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) وعنترة وطويلته (هل غادر الشعراء من متردم) وعمرو بن كلثوم وواحدته (الاهبى بصحنك فاصبحينا ، (وعفت الديار محلها فمقامها) للبيد ، (وآذنتنا ببينها أسماء (للحارث بن حلزة .،وبعضهم يعد دالية النابغة (يادرمية بالعلياء فالسند)ومدحة الاعشى للنبي (ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا)من المعلقات ويسقط قصيدتي عنترة والحارث بن حلزة ويزيد(أقفر من أهله ملحوب) لعبيد بن الابرص،وقد اختلف الناس فى هذه المعلقات وأنكر بعضهم تعليقها على الكعبة ومنهم أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وثلاثين هجرية فقد قال فى شرحه عليها ما نصه : (واختلفوا فى جمع القصائد السبع وقيل ان العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الاشعار فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوا لنا هذه واثبتوها فى خزائنى (ولم يذكر من هو هذا الملك ولعله النعمان بن المنذر وقد

أسلفنا انه كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول وانه صار ذلك الى بني مروان أو مابقى منه على مارواه ابن سلام فى كتاب الطبقات

قال أبو جعفر « وأما قول من قال أنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » وهو يستند فى رأيه هذا الى ان حمادا الراويه لما رأي زهد الناس فى الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ويؤخذ من ذلك أن تسميتها بالمعلقات على فرض التسليم منه بقدم هذه التسمية يرجع الى قول الملك علقوا لنا هذه لا إلى أنها علقت فى الكعبة : وأما صاحب العقد وهو أحمد بن عبد ربه القرطبي . وكان قد ساح فى بلاد المشرق وسمع من العلماء فهو يخالف أبا جعفر النحاس وكانا متعاصرين وهذا كلامه . « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى(١) المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع يقال لها المعلقات » وقد يلاحظ على قوله هنا أن هذه المعلقات كتبت كلها فى وقت واحد . وستعرفون أن ذلك لايتفق مع ماذكره أبو جعفر النحاس ولا مع ماستذكره لغيره من مخالفيه من أن الملك النعمان كان يأمر بتعليق القصيدة الجيدة من الشعر واثباتها فى خزانته وذكر ابن رشيق فى العمدة وهو ممن يوافق صاحب العقد فى الرأى قال « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل كان الملك اذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته

---

(١) جمع قبطى بضم القاف على غير قياس نسبة الى قبط مصر بكسرها وهى ثياب كانت تنسج بمصر

وقال صاحب المقدمة « وهو أيضا ممن يقطع بتعليقها فى الكعبة ويظهر أن كل هؤلاء جروا وراء ابن عبد ربه » بعد كلام له » حتى انتهوا أي العرب الى المباهاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وعنترة ابن شداد العبسى وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع . » وينكر بعض المستشرقين من الفرنجة وبعض الأدباء من باحثى زمننا تعليق هذه الأشعار على الكعبة . ولعل شبهتهم فى ذلك أن الذين نقلوا تعليق هذه المعلقات على الكعبة لم يذكروا تفصيلا شافياً عن كيفية تعليقها ولا عن الذين كتبوها والذين أمروا بتعليقها من الملوك أو الأشراف والقضاة . وأن الكعبة حين هدمت وجدد بناؤها فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر عن هذه المعلقات شيء وأنه ما كان للعرب وهم يوقرون هذه البنية أن يدنسوا أركانها بمثل مجون امرئ القيس ولا فسوق طرفة ويرون من هذا أن التسمية حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل

ويرى بعض شيوخ الأدب الذين يصح التعويل على آرائهم فى هذا الموضوع أن السبب فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن العرب لم تكن تكتب فى دفاف وأنها لم تكتب قبل القرآن كتابا مدفقاً وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الارض حرصا عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض قال وذلك تأويل قوله تعالى « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى

طي الكتاب وتعليقه، وذكر البغدادي في خزانة الادب في معنى المعلقة قال «إن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في اقصى الارض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فان استحسنوه روي وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من اركان الكعبة حتي ينظر اليه» على اننا نقول والعقل لا يرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد في الكعبة على نحو ما يراه البغدادي ويجوز أن يقع ذلك في أيام الموسم كلها أو بعضها ويجوز ان يكون في ساعة من نهار. وهم لا ينكرون ان قريشاً حين تآمروا على قطيعة بني هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة ليعظموا أمرها وليحملوا أنفسهم على المبالغة في تنفيذها والوفاء بما تعاهدوا عليه فيها، وأن الرشيد حين كتب العهد للامين والمأمون ابنيه بالخلافة بعده أمر به فعلق في أستار الكعبة لتزيد بذلك نفاذاً وهيبة وليزداد الناس له اذعاناً وتسليماً واذاً لا مانع أن يكون العرب «وللشعر عندهم من المنزلة ماله» قد فعلوا ذلك بهذه المعلقات لفرط شغفهم بها وحمل الناس على روايتها وتعظيم امرها. ومما يسقط شبهة القائلين بأن العرب كانوا يأنفون ان يضعوا في أركان البيت الحرام هجر امرىء القيس وتعاهر طرفة أن عبد الله بن عباس كانت له مجالس في مسجد رسول الله يسمع فيها شعر ابن أبي ربيعة في دبيبه وغزله وما كان له مع اسلامه وقرابته ومكانه من صاحب هذه الروضة المباركة ان يسمع بمثل ذلك في هذا المكان لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه كما يزعم اصحاب هذه الشبهة الواهية

أما مكانها من التاريخ ومنزلتها من الشعر فينبغي الا نستعجل بالفتوى فيها قبل ان نبسط من كل واحدة أبياتاً تبين ما اشتملت عليه من أغراض وما وقع لقائلها من صواب وما توفق اليه من اختراع في وصف أو حكمة أو تشبيه ليكون ذلك كالتمهيد لما نصفها به بعد ذلك من رفعة أو ضعة ومن قوة أو ضعف ونبدأ بمعلقة امرىء القيس

معلقة امرىء القيس (١)

قال ذلك الشاعر التاريخي

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل ٢
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل ٣
وقوفاً بها صحبي على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسىً وتجمل ٤
وإن شفائي عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معول ٥
كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل ٦
إذ قامتا تضوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل ٧

وقال: —

ألا رب يوم صالح لك منهما ... ولا سيما يوم بدارة جلجل ٨
ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... فيا عجباً من كورها المتحمل ٩
فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل ١٠

---

(١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو المقصور وينتهي نسبه الى كندة ويكنى أبا وهب وأبا الحارث وقيل اسمه حندج وفي كتب الروم اسمه قيس وعاش بين القرنين الخامس والسادس من ميلاد المسيح وستأتي ترجمته

(٢) السقط مثلث الفاء وهو منقطع الرمل واللوى حيث يلتوى الرمل ويدق والدخول وحومل موضعان

(٣) توضح والمقراة موضعان ونسج الريح مجاز عن اختلافها على المكان بما تحمله من التراب (٤) العبرة الدمعة — ومهراقة مصبوبة فعلها هراق وأراق أيضاً المعول أما المعتمد واما مصدر عولت أى بكيت كاعولت

(٥) ومأسل مكان (٦) والريا الرائحة (٧) دارة جلجل غدير معروف (٨) الكور الرحل — المتحمل المحمول (٩) الهداب والهدب المسترسل — الدمقس الحرير أو الابيض منه

وفيها يقول : —

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّل ... وان كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجملي
أغَرَّك منى انّ حبَّك قاتلى ... وانك مهما تأمُرِى القلبَ يَفعل
وما ذَرَفت عيناك إلا لتَضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مُقتَّل

ثم قال :

وبَيضةِ خدرٍ لا يُرامُ خباؤُها ... تَمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَل[1]
تجاوزْتُ أحراساً اليها ومعشرا ... علىَّ حِراصاً لو يُسِرُّون مَقتَلى[2]

ثم مضى يصفها بقوله :

تَصُدُّ وتُبدى عن أسيلٍ وتَتَّقى ... بناظرة من وَحشِ وَجرةَ مُطفِل[3]
وتُضحى فَتِيتُ المسكِ فوق فراشها ... نَؤُومَ الضُّحى لم تَنتطِق عن تَفَضُّل[4]

ثم خرج من ذلك إلى وصف الليل والمناجاة له بقوله :

ولَيلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَه ... علىَّ بأنواع الهُموم ليَبتَلى[5]
فقلتُ له لما تَمطَّى بصُلبه ... وأردفَ اعجازاً وناء بكلكَل[6]
ألا أيُّها الليل الطَّويل الا انجَلى ... بِصُبحٍ وما الاصباحُ منك بأمثَلِ

---

(١) وبيضة خدر كناية عن المرأة وهى تشبه بالبيضة لصفائها وسلامتها وبياضها ـ والخباء البيت من قطن أو شعر أو وبر

(٢) الاسرار الاضمار والاظهار جميعا فهو من الاضداد وبهما فسر البيت

(٣) الصد الاعراض والميل والاسيل الخد النقى على امتداد وطول ووجرة مكان والمطفل ذات الولد

(٤) نؤوم الضحى كناية عن الدعة والنعمة والكفاية ـ وتنتطق أى تلبس المنطقة وعن بمعنى بعد أى لم تصر عزيزة بعد ذلة بل هى ناعمة عزيزة منذ كانت

(٥) السدول جمع سدل وهو الستر والابتلاء الاختبار ٦ الاعجاز للاخير جمع عجز ـ وناء مقلوب نأى والكلكل الصدر

فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه ... بكلّ مُغار الفَتل شُدّت بيذْبُلِ[1]

ثم قال يصف الفرس:

وقد أغتدي والطير في وُكُناتها ... بمُنجرِدٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ[2]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً ... كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ

ثم قال يصف البرق والمطر ومرح الطيور وطربها بصفاء السماء بعد المطر

أصاحِ ترى برقاً أُريكَ وميضَه ... كلَمْعِ اليدين في حَبِيٍّ مكلّلِ[3]

يضيءُ سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ ... أمال السّليطَ بالذّبال المُفتّلِ[4]

على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيْمنُ صوبه ... وأيسرُه على السِّتار فيذْبُلِ[5]

فأضحى يَسُحُّ الماءَ حول كُتَيْفةٍ ... يَكُبُّ على الأذقان دَوْحَ الكَنَهْبُلِ[6]

كأنّ ثبيراً في عرانينِ وَبْلِه ... كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمّلِ[7]

كأنّ مكاكيَّ الجِواءِ غُدَيّةً ... صُبِحْن سُلافاً من رحيقٍ مُفلفَلِ[8]

كأنّ السباعَ فيه غرقى عشيّةً ... بأرجائه القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ[9]

فانت ترى أنه بدأ هذه القصيدة العالية بما عده الادباء بحق أجود مطالع الشعر الجاهلى جملة وضربوا بحسنه المثل فقالوا أحسن من « قفا نبك » وان كانوا يريدون القصيدة كلها : وقد جمع فى شطر هذا المطلع بين أشياء عدها

---

١ ويذبل جبل ومغار الفتل وثيقه وعكمه ٢ الوكنات الاوكار واحدها وكنة والمنجرد الماضى أو القصير الشعر والاوابد الوحوش جمع آبدة والهيكل المرتفع ٣ الوميض لمعان البرق وتحركه. الحبى السحاب ٤ والسليط الزيت با والذبال جمع ذبالة وهى الفتيلة ٥ قطن جبل والشيم النظر الى البرق مع توقع المطر والصوب المطر أو انصبابه والستار ويذبل جبلان وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة ٦ كتيفة موضع والدوح عظام الشجر والكنهبل ضرب منه فى البادية ٧ ثبير جبل بعينه والعرانين الانوف مستعار لاوائل المطر والبجاد الكساء المخطط والمزمل الملفوف ٨ المكاكى ضرب من الطير الواحد مكاء والجواء الوادى ٩ الانابيش أصول النبات الواحدة انبوشة والعنصل البصل البرى

الناس من أوليائه لانه وقف واستوقف وبكى وبكيا معه وذكر الحبيب والمنزل ثم جعل يذكر حبائبه ويصفهن بالطيب والنعمة فى عذوبة ورشاقة ويتحدث عن قصته معهن يوم الغدير وما كان من تخالعه الممزوج بمطاوعة الشباب ونبل الملوك وكان فى مثل عذوبة السلاف حين رقق الغزل فى قوله « أغرك منى — الى قوله وما ذرفت عيناك — البيت » وحين وصل الى وصف الدبيب والاستهتار فى الحب والتعرض للهلكة فى مخاتلة الاحراس الحراص على قتله ثم انتحى نحواً آخر فى وصف طول الليل ووصف الفرس بما هو فيه أول بالاجماع ثم وصف البرق والمطر وجعل الطيور وهى المكاكى من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع كأنما شربن رحيقا مفلفلا ، وكل هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة تستطيع بعد ذلك أن تحكم بهما على هذه المعلقة بانها أجل اثر تاريخى لتلك الفصاحة العربية فى العصر الجاهلى وهى فى جملة أغراضها وأوصافها ونسيبها وكناياتها المثال الذى احتذى عليه الشعراء بعده وجعلوه به رئيس نحوهم والمقدم عليهم غير مدافع

معلقة زهير بن أبي سلمي المزني [١]

وقد بدأها أيضا بالتشبيب ومساءلة الدمن ثم مضى يصف تلك الآثار وظعائن المحبوبة واجتيازهن فى السراب إذ يقول

---

١ هو ابن ابى سلمى ربيعة بن رياح وقيل بالياء بن قرة بن الحارث وهو من مزينة ونزل فى اخواله من بنى عبد الله بن غطفان وستأتى ترجمته

أمِن أمّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تكلّمِ بِحَوْمانةِ الدرّاجِ فالمُتثلّمِ [١]

ودارٌ لها بالرقمتينِ كأنها مَراجيعُ وَشْمٍ فى نواشرِ مِعْصَمِ [٢]

بها العِينُ والآرامُ يمشينَ خِلْفَةً وأطلاؤُها يَنهضنَ من كلِّ مَجْثَمِ [٣]

حتى قال :

فلما عرفتُ الدار قلت لِرَبْعها ألا انْعمْ صباحاً أيّها الربعُ واسْلَمِ

تبصّرْ خليلى هل ترى من ظعائنٍ تَحمّلْنَ بالعلياءِ من فوقِ جُرثُمِ [٤]

عَلَوْنَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلّةٍ وِرادٍ حواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ [٥]

وفيهنّ مَلْهًى للصديقِ ومَنْظرٌ أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّمِ

فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضرِ المتخيّمِ [٦]

وفرغ من وصف هذه الظعائن الى غرضه الشريف من نظم هذه المعلقة وهو

---

١ الدمنة ما اسود من آثار الديار بالبعر والرماد وحومانة الدراج والمتثلم موضعان بالعالية والدراج بفتح الدال وضمها والاول أشهر

٢ الرقمتان حرتان أحداهما قريبة من البصرة والاخرى قريبة من المدينة وأراد دار بين فاجتزأ بواحدة لامن اللبس والمراجيع واحدها مرجوع أى معاد والوشم معروف والنواشر العروق الواحدة ناشرة والمعصم موضع السوار من اليد

٣ والعين جمع عيناء وأعين وهى بقر الوحش أى واسعة الاعين والا رام الظباء الخالصة البياض الواحد رئم والاطلاء جمع طلا وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية والمجثم موضع الجثوم وهو بمنزلة البروك للبعير

٤ الظعائن النساء فى الهوادج واحدها ظعينة وجرثم ماء بعينه ٥ الانماط جمع نمط ضرب من الثياب والعتاق الكريمة والكلة الستر الرقيق والوراد جمع ورد وهو الاحمر والمشاكهة المشابهة

٦ الجمام جمع جمة وهى مجتمع الماء والتخيم المضارب الخيمة

مدح عظيمى غطفان الذين أصلحا بين عبس وذبيان فى الحرب قال .

سعى ساعيا غيظِ بن مُرّة بعدما تَبزّل ما بين العشيرة بالدم [١]

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله رجال بَنَوْه من قريش وجُرْهُم

يمينا لنعم السيدان وجدتُما على كل حال من سَحيل ومُبْرَم [٢]

تداركتُما عبسا وذُبيانَ بعد ما تَفانوا ودقّوا بينهم عِطر مَنْشِم [٣]

ثم انتقل إلى ذكر ربانيته وعلمه بقوله

فلا تَكْتُمُنّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكتَم اللهُ يَعلم

يُؤخّر فيُوضَع فى كتاب فيُدّخر ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَم

ثم ذكر رزايا الحرب وهول من شأنها وعظم من مصائبها وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وسادتهم وخلص من ذلك إلى الوجه الذى ائتم فيه الشعراء به من الحكم السائرة التى سلكها فى هذا النسق المتكرر فى (ومن ومن) فى قوله :

ومن يَعصِ أطراف الزِّجاج فانه يُطيع العَوالى رُكّبت كلّ لَهْذَم [٤]

ومن لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدّم ومن لا يَظْلم الناس يُظلم

إلى أن جعل خاتمه مطافه قوله :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعُدتم ومن يُكثِر التّسآل يوماً سيُحرم

وقد ترون أنه سلك فى مطلع قصيدته مسلك امرىء القيس وبعد أن فرغ من وصف الظعائن ودمن الديار وجمام الماء والأنماط العتاق والكلل

---

(١) تبزل تفتح (٢) السحيل والمبرم الضعيف الفتل والقوى المحكم (٣) منشم عطارة يتشاءم بها

(٤) الزجاج جمع زج وهو الحديدة تكون فى أسفل الرمح - العوالى جمع عالية وهى ضد سافلة ، الرمح واللهذم السنان القاطع

الوارد دخل فى أمر الصلح واحتمال الديات ومدح السيدين « الحارث بن عوف وهرم بن سنان » ، ثم وصف الحرب وخرج منها الى هذه الاشتات البديعة من حكمه التي فتح للشعراء بعده عيونها وأنهج لهم سبيلها مما يعد أظهر ميزة لهذه المعلقة عدا ما فى أسلوبها من القوة وحسن الاختصار والتشابه القوى بين أبياتها من أولها إلى آخرها

وكان السبب فى انشاء هذه القصيدة هو تلك المكرمة الفاخرة التى قام بها هرم والحارث من الاصلاح بين الحيين واحتمال ديات القتلى منهما فى أموالهما .

معلقة طرفة بن العبد

وهى كذلك محتذاة فى مطلعها على معلقة شيخ الشعراء امرىء القيس ،

لِخَوْلَةَ اطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كَباقى الوشْمِ فى ظاهر اليد

وقد وقع خاطره على ما سبق به أمرؤ القيس من ذلك الاسلوب الذى لم يقع لشاعرين على ما نعلم الا لهما فى هذا الادب وهو قوله :

وُقوفاً بِها صحبي علىَّ مَطِيَّهم يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتَجَلَّدِ

ولم يغير فيه سوى القافية . وهو وان لم يكن من جمال الشعر بالمكان البعيد أسلوب خاص بهما . وقد شبه حدوج المالكية بخلايا السفين وجعل يصف السفينة نفسها وفعلها بالماء فى شق حيزومها له ثم وصف المرأة فشبهها بالظبي

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة ينتهى نسبه الى بكر بن وائل وهو من أشرافهم وسمى ابن العشرين قيل لانه مات وهو ابن عشرين سنة وقيل قتل وهو ابن ستة وعشرين سنة . وطرفة بالفتح والتحريك فى الأصل واحدة شجرة الأثل . وبرقة ثهمد فى مطلع قصيدته موضع . والبرقة والأبرق المكان الذى يختلط ترابه بالحجارة

الشادن الاحوى وشبه ثغرها بنور الاقاحي الندية ثم دخل في بابه الذي لا ينازع فيه وهو وصف الناقة من قوله :

وانّي لَأُمضي الهمَّ عند احتضاره　　بعَوْجاء مِرْقال تروح وتغتدي ١

إلى قوله:

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي　　ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى

وبدأ بعد ذلك في فخاره وذكر فتوته واندفاعه مع أسباب المجون واللهو في نداماه وقيانه. قال :

إذا القومُ قالوا من فَتىً خِلْتُ أنني　　دعِيتُ فلم أكْسَل ولم أتَبلّد

ولستُ بحلاّل التّلاع مخافةً　　ولكن متى يَسترْفِد القومُ أرْفِد ٢

فان تَبغِني في حَلْقةِ القوم تَلْقَني　　وان تَلْتَمسني في الحوانيت تَصْطَد ٣

وان يلْتَقِ الحيُّ الجميعُ تلاقِني　　إلى ذِرْوة البيت الشريف المُصَمَّد

نَدامايَ بيضٌ كالنجوم وقَيْنَةٌ　　تروح علينا بين بُرْد ومُجْسَد ٤

رحيبٌ قِطابُ الجيبِ منها رَفيقة　　بجَسّ النَّدامى بَضّةُ المتجَرَّد ٥

إذا قلت هاتِ أسمِعينا انبرَتْ لنا　　على رِسْلِها مَطْروفة لم تَشَدَّد ٦

ثم ساقته غرة الشباب وسكرة الصبا الى الاعتراف بمجونه والتحدث بأمانيه فقال:

١- الهم النية والعزم - احتضاره حضوره - العوجاء الناقة التي تموج في سيرها مرحا ونشاطا - المرقال وصف من أرقل لضرب من السير

٢ التلاع جمع تلعة وهي مسيل الماء - يسترفد من الرفد وهو العطاء ٣ الحوانيت جمع حانوت وأراد منازل الخمارين ٤ الندامى جمع نديم كيتامى ويتيم وهو الجليس على الشراب والمجسد - والقينة الجارية المغنية والمجسد الثوب الذي يلي الجسد أو المصقول الذي يكاد يقوم من الصقال والجساد صبغ وهو الزعفران

٥ الجيب مدخل الرأس من الثوب وقطابه فتحته واتساعه والبضة الناعمة والمتجرد الجسد ٦ الرسل المهل

وما زال تَشرابى الخمورَ ولَذّتي ... وبيعى وانفاقى طَريفى ومُتلَدى[1]

الى أن تحامتنى العشيرةُ كلها ... وأُفرِدْتُ افراد البعير المُعَبَّد[2]

ثم قال وهو فى أمانيه هذه على جاهليته صادق النظر اذا حملت ماوصفه من الشراب والمرأة على مايحل دون مايحرم

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عُوَّدى

فمنهن سبقُ العاذِلاتِ بشربة ... كُمَيْتٍ متى ما تُعلَ بالماء تَزْبد[3]

وكَرّى اذا نادي المضاف محَنَّبا ... كَسيد الغضا نَبَّهته المُتَوَرِّد[4]

وتقصيرُ يوم الدَّجْنِ والدجنُ مُعجِب ... ببَهْكَنَةٍ تحت الخباء المُعَمَّد[5]

ثم أفاق من هذه النشوة وصحا من تلك الغواية فأخذ يذكر الموت واصطفاءه لعقيلة الفاحش الحريص ويستبكى حبيبته عليه يوم موته استعزازا منه لنفسه ثم انطلقت هذه النفس الشابة بفريدة من الحكمة لاتزال مثلا سائرا بين الادباء لايبلغ شأوه. قال:

أرى الموتَ يَعتام الكرامَ ويصطفى ... عقيلةَ مال الفاحش المُتَشَدِّد[6]

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وماتنقص الايام والدهر يَنفَد

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرخَى وثِنْياه باليد[7]

إذا مِتّ فانعَينى بما أنا أهله ... وشُقّى على الجيبَ يابنة مَعْبد

إلى قوله.

---

(١) الطريف الحديث والمتلد القديم ٢ المعبد المذلل والمطلى بالقطران ٣ الكميت الخمر والكمتة لون حمرة إلى صفرة

(٤) المضاف المستغيث والمحنب الفرس الذى فى يديه انحناء والسيد الذئب والمتورد الوارد للماء

(٥) الدجن الباس الغيم آفاق السماء والبهكنة الجميلة الناعمة الرابية

(٦) يعتام أى يقصد ـ والعقيلة الكريمة على الشخص من ماله وغيره والفاحش البخيل ٧ الطول الحبل ترسل به الدابة فى المرعى والثنى الطرف

ستبدى لك الايامُ ما كنت جاهلا   ويأتيك بالاخبار من لم تُزود

والرواة مجمعون على أن هذه المعلقة أكثرهن أسرا وأجزلهن عبارة ولو أنها خلت من عنجهية الغريب فيما تعطاه طرفة من وصفه لناقته لكان بها أجودهم. طويلة ، وهى كمعلقة امرأ القيس لم يتعلق بانشادها غرض معروف سوى هذه الطبيعة الشعرية وسوى ما يذكر من أن امرأ القيس ساقها فى غزله بفاطمة وقصته معها يوم الغدير ويصح أو يكون طرفة أنشأ طويلته فى الوصف والفخر أيضا أو فى استرداد الابل الضائعة كما سيأتي :

معلقة لبيد بن ربيعة العامرى (١)

وهذه المعلقة لا تكاد تعثر فيها ببيت واحد تستطيع وحدك أن تفهمه من غير استعانة بغريب اللغة فهى محفوفة من أطرافها بوحشة البداوة متناهية فى الاغراب والخشونة قال لبيد يذكر عفاء الديار ودروسها ويشبب بخلته نوار

عفَت الديارُ مَحلُّها فمُقامها   بمِنَى تأَبد غَولُها فرجامُها ٢

فمَدافعُ الرَّيان عُرِّيَ رَسمها   خَلَقا كما ضمِن الوُحيَّ سلامُها ٣

ثم جعل يصف الرعد والمطر وتدافع السيول على الطلول ، وقد يكون فى بيته هذا واضحا بعض الوضوح إذ يقول :

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب من بنى عامر ثم من هوازن وينتهى نسبه الى قيس عيلان من مضر وكان أبوه ربيعة يسمى ربيعة المقترين لجوده . ولبيد أحد الشعراء الفرسان الاجواد الفتاك وهو معمر أدرك الاسلام ومات سنة ٤٠ للهجرة

٢ عفا لازم ومتعد ومعناه تغير والمحل مكان الاقامة القصيرة والمقام بالعكس وتأبد توحش والغول والرجام جبلان ٣ المدافع جمع مدفع وهى مساقط المياه والريان جبل معروف . والخلق البالى . والوحى الكتابة . والسلام جمع سلمة بكسر اللام الحجارة

وجلا السُّيولُ عن الطلول كأنّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها

وبعد أن وقف في الرسوم وذكر تحمل الحي وتشوقه لظعائن المحبوبة أطلقه بناقته فشبهها تارة بالاتان الوحشية في السرعة وخفة التوجس وتارة بالبقرة المذعورة التي فقدت فريرها وقد أغرب هنا اغرابا

تعرفه مما نسوقه في أبياته الآتية حين يشبه الناقة بحمارة الوحش إذ يقول

أو مُلْمِعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لاحَهُ طَرْدُ الفحول وضربُها وكِدامُها[1]

يعلو بها حَدَبَ الإكامِ مُسَحَّجٌ قد رابه عِصيانُها وَوِحامُها[2]

لم بأحزّة الثَّلَبوت يَرْبَأُ فوقها قَفْرَ المراقب خوفُها آرامُها[3]

وحين يصفها بالبقرة الوحشية في قوله

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصِّوار قِوامُها

وقد مضت هذه في أغراض الشعر مع وصفه لكلاب الصيد فلا نطيل به هنا، وما زال يتيه في هذه الغواية الدامسة حتى تخلص الى الفخر بنفسه والتحدث الى نوار ومقامرته لاخوانه واكرامه لاضيافه قال

أو لم تكن تدرى نَوارُ بأنني وَصّالُ عَقْدِ حبائلٍ جَذّامُها[4]

---

[1] الملمع المشرفة الطبين – وسقت حملت الاحقب العيرق وركيه بياض ولاحه غيره – والكدام المكادمة مفاعلة من الكدم وهو العض

[2] الحدب المحدودب – والاكام واحده أكمة وهى التل دون الجبل والمسحج المعضض والوحام والوحم اشتهاء الحبلى الشيء

[3] الاحزة جمع حزيز وهو المكان الغليظ المنقاد والثلبوت كحلزون واد أو أرض من طيء أو ذبيان وربأ أى رقبه ومنه الربيئة من يستطلع امر العدو المراقب جمع مرقب وهو مكان الربيئة – والآرام جمع أرم وهي أعلام الطريق

[4] الحبائل جمع حبالة وهى مستعارة للعهد . والجذام مبالغة في الجذم وهو القطع

تَرّاكُ أمكنةٍ اذا لم أرْضَها　　أو يَرْتَبِط بعضَ النفوس حِمامُها[١]

بل أنت لاتدرين كم من ليلة　　طَلْقٍ لذيذٍ لهوها ونِدامُها[٢]

حتى قال وقد ظرف فى هذه الاستعارة

وغداة ريحٍ قد وزعت وقِرَّةٍ　　اذ أصبحت بيد الشمال زمامُها[٣]

ولقد حميتُ الخيلَ تحمل شِكَّتى　　فُرُطٌ وِشاحى اذ غدوت لجامُها[٤]

ثم ذكر فضله العظيمة ونحره للايسار وعطف على قومه فتفخر بكثرة سادتهم وماسنه لهم آباؤهم اذ يقول

وكثيرةٍ غرباؤُها مجهولةٍ　　تُرْجى نوافلُها ويُخشى ذامُها[٥]

أنكرتُ باطلَها وبؤتُ بحقها　　يوما ولم يفخر على كرامُها

وجزور أيسارٍ دعوتُ لحتفها　　بِمَغالِقٍ متشابهٍ أعلامُها[٦]

فالضيفُ والجار القريب كأنما　　هبطا تَبالةَ مخصِبا أهضامُها[٧]

انا اذا التقت المجامع لم يزل　　منا لِزازُ عظيمةٍ جَشّامُها[٨]

ومقَسِّمٌ يعطى العشيرة حقَّها　　ومغَذْمِرٌ لحقوقها هَضّامُها

---

١ الحمام الموت ٢ الندام المنادمة

٣ وزعت أى كففت . والقرة البرد . والشمال الريح تهب من الشمال وهى باردة ٤ والشكة السلاح والفرط الفرس الخفيفة المتقدمة السريعة

٥ وكثيرة ... البيت يريد رب دار يكثر الوافدون عليها ممن لايعرفونها والنوافل العطايا والذام العيب والعار وكأنه يشير الى المناظرة التى جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسى عند النعمان بن المنذر ولعل انشاده لهذه المعلقة قد يكون من أسبابه تخليد هذه المفخرة للعامرين بعد كبرة لبيد وادراكه

٦ الجزور الذبيحة ، والايسار جمع يسر وهم المقامرون ، والمغالق سهام الميسر ، وتبالة بلد خصب من أودية اليمن ، والاهضام الاراضى المطمئنة الواحد هضم ٧ واللزاز الذى يلز الخصوم أى يقهرهم ويغلبهم حين يقرن بهم ، والتجشم ركوب الخطر والمشقة ٨ الغذمرة الغضب مع همهمة الغشم الكسر والظلم

فضلاوذو كرم يعين على الندى ‏ ‏ سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ‏ ‏ ولكل قوم سنة وامامها

وهذه القصيدة القوية النسج تمتاز أيضا بتساويها من كل جهاتها فيما هى مفرغة فيه من الاغراب الذى قد تستجفيه الآذان ولا تقع عليه الطباع غير أنها بعد ذلك كله تعتبر فى شدتها وصدق انتزاعها من صميم الصحراء أجمل وثيقة تاريخية تدل على صدق هذا الأدب الجاهلى .

معلقة عنترة العبسى (١)

ومن الغريب أن يكون عنترة وهو فى نشأته راع طريد وفى شبابه فارس مقدم يتجلى عن هذه الشيمة الكريمة . ويتبين فى قوله ذلك الطبع السهل الذى بدا منه على هذه المعلقة فى غير موضع أثر من السلاسة ورقة الحاشية وإن لم تخرج عن أدب العصر بالانحراف عن الغريب والخشونة فى الجملة ، قال العبسى .

هل غادر الشعراء من متردم ‏ ‏ أم هل عرفت الدار بعد توهم[٢]
يادار عبلة بالجواء تكلمى ‏ ‏ وعمى صباحا دار عبلة واسلمى[٣]
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا ‏ ‏ بالحزن فالصمان فالمتثلم[٤]

---

١ هو عنترة العبسى بن شداد بن عمرو بن قراد ، وقيل شداد جده غلب على أبيه وقيل عم كفله بعد أبيه والعنتر فى الاصل الذباب الازرق ، الواحد عنترة ويترجح أن السبب فى ارتجاله هذه المعلقة ماوقع له من بعض العبسيين فى تعييره اياه بالسواد وعدم قول الشعر ذكر ذلك البغدادى فى الخزانة ونقله أيضا ابن قتيبة فى طبقات الشعراء . وعاش عنترة الى حدود القرن السادس الميلادى

٢ المتردم المكان الذى يحتاج الى اصلاح او هو من التردم كالترنم وزنا ومعنى ٣ الجواء موضع وفى غير البيت جمع جو

٤ الحزن والصمان والمتثلم مواضع

دار لآنسة غضيض طرفها　　طوع العناق لذيذة المتبسّم[١]

فوقفت فيها ناقتي وكأنها　　فدن لأقضي حاجة المتلوّم[٢]

وبعد ذكر حبه لعبلة وقتاله لقومها وأنه على هذه الحال كالطامع في السراب جعل يصف حلاوتها وثغرها . فشبه طيبه مرة بفأرة المسك وأخرى بالروضة الأنف واستطرد الى ذلك التشبيه الدقيق التصوير في قوله :

وخلا الذباب بها فليس ببارح　　غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجاً يحك ذراعه بذراعه　　قدح المكب على الزناد الأجذم[٣]

وجهابذة البيان لا يزالون يستجيدون هذا التشبيه ويقرون حسنه ويعدونه من التشبيهات العقم ، ثم عاد يصف تنعمها وشقاءه وأنهما كما يقول

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية　　وأبيت فوق سراة أدهم ملجم[٤]

وحشيتي سرج على عبل الشوى　　نهد مراكله نبيل المحزم[٥]

ثم جعل يصف الناقة على مثال طرفة ولم يسرف وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكراهة ظلمه قال.

أن تغدفي دوني القناع فانني　　طب بأخذ الفارس المستلئم[٦]

---

(١) الآنسة المؤنسة والغضيض المكسور من الحياء والمتبسم الفم

(٢) والفدن القصر والمتلوم الباقي المتمكث

(٣) المكب المطاطئ الاجذم المقطوع الكف

(٤) - كأنها فعيلة بمعنى مفعولة أي المحشوة والسراة الظهر والادهم أي التي تضرب زرقة لونه الى السواد ه العبل الغليظ والشوى الاطراف جمع شواة والنهد المشرف الضخم والمراكل جمع مركل مواضع عقب الراكب من جنب الفرس والمحزم موضع الحزام ونبيل بمعنى عظيم وسمين

(٦) الاغداف الارسال والارخاء - والطب العالم الحاذق المستلئم اللابس اللأمة وهي عدة الحرب

أثني عليّ بما علمتِ فانني ... سهل مخالقتي إذا لم أظلم
فاذا ظلمتُ فان ظلمي باسل ... مرٌّ مذاقتهُ كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركَدَ الهواجرُ بالمَشوف المُعْلَم[1]
فاذا شربت فانني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يُكلَم
وإذا صحوت فما أقصرعن ندي ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقد أسلفنا فى أغراض الشعر شيئا من وصفه لنجدته وحديثه عن منازلته قرنه وشكوي أدهمه ، ولم يلهه ذلك عن العودة الى الغزل إذ قال بعد ذلك وهو من رقيق الكلام وحلو القريض

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهل ... مني وبيضُ الهند تَقطُر من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ثم ختم طويلته بما ساقه من الوعيد لابني ضمضم وكان قتل أباهما فتوعداه ونذر ادمه قال

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدُرْ ... للحرب دائرة على ابنيَ ضمضَم
الشاتمَيْ عرضي ولم أشتمهما ... والناذرَين إذا لمْ القهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزرَ السباع وكلِّ نسر قشعَم

معلقة عمرو بن كلثوم (٢)

وقد ساقها بعد التشبيب فى الفخر بقومه وذكر أيامهم وبلائهم فى الحروب

---

(١) المدامة الخمر ـ ركد استقر الهواجر جمع هاجرة شدة الحر والمشوف المجلو المحسن

(٢) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير التغلبي أحد فتاك العرب المشهورين وامه ليلى بنت مهلهل اخي كليب ، وأبوه فارس تغلب فقد احاط به الشرف والعز من كل نواحيه توفى سنة ٤٠ قبل الهجرة

والتهديد لعمرو بن هند الملك وقد كانت سيادته وشغله برياسة قومه مما صرفه عن الاكثار من الشعر فلم يشهر الا بهذه الواحدة التي كن ينشدها في عكاظ وكانت تغلب تعظمها وتحتفل لانشادها ويفتخرون بها حتى عيرهم بذلك بعض الشعراء المتأخرين إذ يقول

الهى بنى تغلب عن كل مكرمة — قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

ومطلعها

ألا هبي بصحنك فاصبحينا — ولا تبقى خمور الاندرينا ١

وقال بعضهم أن المطلع هو

قفى قبل التفرق ياظعينا — نخبرك اليقين وتخبرينا

وبعد أن أطال في وصف صاحبته بدأ يهدد عمرو بن هند وجعل يذكر آباءه وأيامهم وصنائعهم قال

أبا هند فلا فلا تعجل علينا — وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا — ونصدرهن حمراً قد روينا

وأيام لنا غر طوال — عصينا الملك فيها أن ندينا

ثم قال

ورثنا مجد علقمة بن سيف — أباح لنا حصون المجد دينا

ورثت مهلهلا والخير منه — زهيرا نعم ذخر الذاخرينا

وعتابا وكلثوما جميعا — بهم نلنا تراث الأكرمينا

ومنا قبله الساعى كليب — فأى المجد إلا قد ولينا

متى تعقد قرينتنا بحبل — تجذ الحبل أو تقص القرينا٣

(١) الاندرين قرى بالشام طيبة الخمر

(٢) المحجر الممنوع أو الملتجى ٣ تجذ تقطع - تقص - من الوقص وهو القتل

ثم قال

وقد علم القبائلُ من معدٍ ... إذا قُببٌ بأبطحها بُنينا
بأنا العاصمون اذا أُطِعْنا ... وأنا العارمون اذا عُصينا [١]
وأنا المنعمون إذا قدرنا ... وإنا المهلكون إذا ابتُلينا
ملأْنا البر حتى ضاق عنا ... ونحن البحر نملأُه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما ... تخرُّ له الجبابر ساجدينا

ومن جيد ماجاء فيه قوله

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تُفارِق أو تهونا
ظعائنُ من بنى جُشَمٍ بن بكر ... خلطن بميسم حسباً ودينا [٢]
أخذنَ على فوارسهن عهداً ... إذا لاقوا فوارس مُعلَمينا [٣]
ليستلبنَّ أبداناً وبيضاً ... وأسرى فى الحديد مُقرَّنينا
يَقتْن جيادنا ويقلْن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

والمتأمل فى هذه المعلقة والتى قبلها يرى فيها شيئاً من أثر الرقة والسهولة قد يكون أكثر ظهورا فى هذه الاخيرة ، ويلحظ فيها شيئا من المعاني المتكررة والفخر المبالغ فيه كما فى قول ابن كلثوم (إذا بلغ الرضيع لنا فطاما . البيت) والى جانب ذلك معاني حسانا والفاظا رشيقة

ولعل ما يتصل بارتجال هذه القصيدة من فتكه بعمرو بن هند على النحو المروي فى قصته المشهورة مما يصح أن تأخذ تفصيلاته بشيء من التحفظ إذ لايبعد وإن كانت الحادثة فى ذاتها مسلمة أن يكون شيء مما أحاط بها غير

---

(١) والعاصم المانع والحامى والعارم الشديد الثقيل الوطأة

(٢) والميسم الحسن ٣ المعلم التى يعلم نفسه فى الحرب بعلامة ليكون معروف البلاء

صحيح ، لان لاحد أن يقول وكيف يقتل ابن كلثوم هذا الملك على سرير ملكه وفى وسط أعوانه وبين الطائفين به من جنده وحراسه ثم لا يسمع الناس خبراً ولا يجدون من أحد نكيرا ، وقد يكون هذا القول اعتراضا وقد يكون وجيها ، بل ربما سهل السبيل الى القول باتصال هذا العبث من افتعال الرواة بأبيات من القصيدة نفسها خصوصا حين تقرؤون معلقة الحارث ابن حلزة اليشكرى وهى قد قيلت لهذا الملك بعينه من شاعر معاصر لابن كلثوم وفيها بداوة قوية وفى تلك لين وفيها سهولة

ولكن هذا الاعتراض سيتداعى من أساسه حين تقفون على الاعتبارات الآتية وهى فى جانب من الخطر ، ولها ما لها من الاعتبار والشأن وذلك أن هذا الملك كان قد طالت أيامه وثقلت على الناس وطأته ودوخهم عسفه وجوره حتى باتوا يرقبون له داهية القرون ويتربصون به دوائر السوء وكان فى آل المنذر من يتطلع الى هذا الملك من بعده وهم حين ضعفت عصبيتهم فى العراق ولم يكن لهم من المنعة الا هذه الولاية التي يمنحها لهم ملوك الفرس على سنة سلفت وعادة جرت ، ويومئذ كان العز والعدد فى ربيعة قد انتهى الى هذين الحيين من بكر وتغلب وكانت السيادة والشرف فيهما لعمرو وأبيه وجده ومن اليسير اذا أن تكون هذه الفتكة وليدة فكرة مختمرة وتآمر مدبر استروح الناس منها العافية وتولوا الى ظل من الطمأنينة والدعة وذلك هو السر فى تخاذل الاعوان وتقاعد التبع عمن أراحهم من هذا الجبار فى اللحاق بهم والتعقب لآثارهم حتى انصرفوا موفورين لم يصب أحد منهم بكلم ، وأما ماعسى أن تعجبوا منه من الفرق بين القصيدتين فى لين واحدة وقوة أخرى فاعجب منه أن تسلموا بأن من الناس من يكون له عدة بنين فى دار واحدة ومن صلب وحمى وهذا غبي فدم وذاك فصيح معرب وأشد من ذلك عجبا أن تقولوا أن

الرجل الواحد قد تمر به حالتان مختلفتان يكون فى احداها سهلا دمثا وفى الاخرى غليظا متوعرا ، وما كان العرب الا خلقا من خلق الله يكون فيهم القوى كما يكون فيهم الضعيف وتختلف طباعهم كما اختلفت ألوانهم وأنتم تعلمون أن من آثار البادية تعويد الناس البأس والخشونة والنجدة وفى العرب من كان جبانا هرابا ونفاجا مخلوعا والطباع مازالت قسمة بين الناس

معلقة الحارث بن حِلزَة اليشكرى

وكان السبب فى ارتجالها أن دماء كانت بين بكر وتغلب اختلفوا عليها وترافعوا فيها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم وعلم الحارث أن ضلع الملك على رهطه من بكر مع تغلب فوقف وكان به وَضَح فالقى الملك بينه وبينه سترا ثم جعل يعجبه قوله حتى رفع الستر عنه وأدناه فأجلسه معه وحكم لبكر على تغلب

آذنتنا بِبَينِها أسماءُ　　رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ[٢]

بعد عهد لنا بِبُرقة شمَّاءَ　　فأدنى ديارِها الخَلْصاءُ[٣]

وبعد أن مضى قليلا فى هذا التشبيب أخذ يصف الناقة ويشبهها بالنعامة فى الاسراع والخفة ثم تركها مكانها وجعل يذكر تجنى تغلب على قومه ويرد عليهم ويذكر ما لقومه من المنعة والايام والمآثر واتصل من ذلك بمدح الملك وتذكيره بأياديهم عنده وتعييره تغلب باستخذائها له ، وهو فى هذا أشبه بمن كان يهدد الملك ويتوعده لا بمن كان يمدحه ويتزلف اليه قال

---

(١) الحارث بن حلزة ـ ومعناها القصيرة والبخيلة والسيئة الخلق ابن مكروه بن عبد الله بن مالك ينتهى نسبه الى يشكر رهط من بكر بن وائل وهو من أصحاب الواحدة الجيدة عمر طويلا ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة

(٢) البين الفراق الثاوى المقيم ٣ برقة شما مكان والخلصاء كذلك

غير أنى قد أستعين على الهم إذا خفّ بالثّوى النّجاء[١]

بزفوف كأنها هقلة أمّ رئال دوّيّة سقفاء[٢]

آنست نبأة وأفزعها القنّاص عصرا وقد دنا الامساء[٣]

ثم قال

إن اخواننا الاراقم يغلون علينا فى قيلهم احفاء[٤]

زعموا أن كل من ضرب العير موال لنا وأنّا الولاء[٥]

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذاك رغاء

أيها الناطق المرقّش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء[٦]

لا تخلنا على غراتك إنّا قبل ما قد وشى بنا الأعداء[٧]

فبقينا على الشّناءة تنمينا حصون وعزة قعساء

وكأن المنون تردى بنا أرعن جونا ينجاب عنه العماء[٨]

إرمىّ بمثله جالت الخيل فآبت لخصمها الاجلاء

---

(١) الثوى المقيم والنجاء الاسراع

(٢) الزفيف اسراع النعامة فى سيرها وقد يستعار لسير غيرها كما هنا فالزفوف مبالغة فى وصف الناقة بالسرعة والهقلة النعامة والرئال أولادها الواحد رأل والدو المفازة والدوية المنسوبة اليها والسقفاء الطويلة مع انحناء

(٣) آنست أحست والنبأة الصوت الخفى والقناص الصيادون ٤ الاراقم بطون من تغلب والغلو مجاوزة الحد والاحفاء الالحاح والقيل القول

٥ العير الحمار وقد يكون بمعنى السيد وبهما فسر البيت

٦ الترقيش الزخرف والتزيين ٧ والغرة اسم بمعنى الاغراء وفى العبارة حذف أى لا تظن أننا خضعنا

٨ الشناءة البغض وتنمينا أى ترفعنا وتعمنا والقعساء الثابتة العزيزة وتردى بمعنى ترمى من باب ضرب والارعن الجبل الشامخ والجون الابيض والاسود ضد والانجياب الانشقاق والعماء السحاب

ملك مقسط وأفضل من يمشى ومن دون مالديه الثناء

وقال :

هل علمتم أيّامَ يُنْتَهبُ النّا سُ غِوَاراً لكُلّ حيٍّ عُواء[١]

إذ رفعنا الجمال من سَعَف البَحْرَ يْنَ سَيْراً حتى نَهاها الحساء[٢]

ثم مِلْنا على تميم فأحْرَمْنا وفينا بَناتُ قوم إماء

لا يقيم العزيزُ بالبلد السّهل ولا يَنفعُ الذّليلَ النّجاء

ليس يُنْجِي مُوائلاً من حِذَارٍ رأسُ طَوْدٍ وحَرّةٌ رَجْلاء[٣]

مَلِكٌ أضْرَعَ البريّة لا يو جَدُ فيها لما لديه كِفاء[٤]

كتكاليف قومنا إذا غزَا المنذرُ هل نحنُ لابن هند رِعاء

ما أصابوا من تغلبى فَطُلُولٌ عليه إذا أُصيبَ العَفاء[٥]

إذْ أحلّ العلياءَ قُبّةَ مَيْسُونَ فأدْنَى ديارها العَوْصاء

فتأوّتْ له قَراضِبَةٌ من كل حى كأنهم ألْقاء[٦]

فهداهم بالأسْودين وأمرُ الله بَلغٌ تَشقى به الأشقياء

ثم مضى بعد ذلك يذكر أياديهم على عمرو بن هند ثم حُجْر بن أم قطام وعلى امرىء القيس من بعده وغيره من الملوك والاشراف الذين نصروهم فى الحرب ، ثم جعل يذكر تغلبا بما كان بينهما من الحلف وانتهى من ذلك الى من العتاب الممزوج بالانكار والغرابة لما تريدهم عليه تغلب من الهوان والتسليم قال

---

١ الغوار المعاودة مفاعلة من الغارة أى المهاجمة ٢ رفعنا الجمال أى سيرناها وسعف البحرين اطرافها واصل السعف النخلة ونهاها كفها الحساء مكان بعينه ٣ والموائل الهارب الطالب الموئل والطود الجبل والحرة الرجلاء الغليظة الشديدة والحرة ارض ذات حجارة . ود ٤ الكفاء الجزاء والنظير ٥ المطلول المهدر الدم والعفاء الفناء والاهاب ٦ وتأوت اجتمعت والقراضبة اللصوص والالقاء جمع لقوة وهى العقاب

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِى الْمَجَازِ وما قُدِّمَ فيه العهود والكفلاءُ
واعلموا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فيمَا اشترطنا يوم اختلفنا سَواء
أعلينا جُنَاحُ كِنْدَةَ أن يَغْـنَمَ غَازِ بِهِمُو ومِنَّا الجَزَاء

والقصيدة كلها من هذا النمط القوى وفيها من أثر الارتجال الاقواء فى قوله

فَمَلَكْنَا بذلك النَّاسَ حتى مَلَكَ المنذرُ بنُ ماء السماءِ

هكذا بالجر ، والقافية كلها مرفوعة على اننا نرجح أن هذه القصيدة غير مرتجلة وانما هى محبرة فكر فيها الشاعر وأعدها اعدادا لهذا المقام الذى لم يكن مفاجئا ولا معجلا عن الروية كما هو ظاهر

وهذه هى القصائد السبع ممتازة عن سائر الشعر الجاهلى بأوليتها وسعة قوافيها وتلك الاغراض المتنوعة وبهذا الاسلوب البدوى المشتمل على اثارة من الحسن فى الجزالة والرقة مع المعاني الكثيرة والأدب الشعري الذي كانت هذه القصائد خير مثال منه مضى فى أثره الشعراء من بعد

أوصاف الشعر أو مميزاته

أما من حيث اللفظ فهو كما ترى تغلب عليه الجزالة ويكثر فيه الغريب وخاصة عند تعاطى الوصف للشىء من حيوان وجماد وطير ونبات، وهو أيضا لفظ معرب لا ترى فيه لحنا، وقد قدمنا أن ذلك كان جبلة وكان طبعا والمعروف أنه لم يؤثر عن واحد من أهل هذه الجاهلية لحن يذكر ومن أوصاف الألفاظ أنها كانت غالبا تستعمل فى معانيها الحقيقية كما أسلفنا فى النثر الا ما كان فى باب الوصف والغزل وبعض المدائح من التشبيهات البارعة المصورة وبعض الكنايات الرائعة الحسن كمثل نؤوم الضحى، فى قول امرىء القيس وإن كانت نومة الضحى قد أصبحت وعسى ألا

تعجب أهل هذا العصر النشيط المتحرك ، الا أنها مع ذلك كانت ولا تزال تدل على مقدار النعمة والفراغ

وكذلك لم يكن لهم فى لفظهم من دخيل أعجمى الا ماعرفوه من قبل وخلطوه بأوضاع لغتهم فى أبان التكوين ، وقد أشرنا الى ذلك فى الكلام على أصل العربية وقد وقع للأعشى بعض ذلك الاعجمى كان يتظرف به فى شعره كقوله

لنا جلسان عندها وبنفسج وسيسمبر والمرزجوش منمنما

أما معاني الشعر الجاهلى فأظهر أوصافها أنها كانت معاني فطرية قريبة التناول متزحزحة عن هذه النزوات الفلسفية وذلك الاستقصاء العميق فى استخراجها من مظانها وكانت فى الغالب بريئة من المبالغات المفرطة المفوتة لمحاسن الكلام مفرغة فى هذه الالوان الزاهية من الصراحة والصدق تكتسب من هذه السذاجة الظاهره فى ترتيبها وقلة الاكتراث لتحقيق التناسب الظاهر بينها لونا آخر من جمال الفطرة المحبوبة

وأما الأسلوب فأظهر أوصافه ماتراه من غلبة الايجاز وحذف الفضول واطراد التعبير من طريق الحقيقة والتشبيه فى الغالب ، وكذلك مافيه من هذ الطابع البدوي الذى يكاد يمتاز به شعر الجاهليين من ايراد المعاني فى صورة الخطاب لما لا يعقل من طلل أو ناقة أو فرس

وهذا النسيب أو ذلك الحديث الى النساء الملم بأطراف كلامهم والداخل فى أكثر أغراض الشعر عندهم ، وهناك شيء آخر فى الاسلوب هو قلة العناية بترتيب الافكار وعدم الحرص على الربط بين أجزاء الكلام ، حتى ليخرجون من غرض الى غرض من غير توطئة ولا تمهيد فى مفاجأة واقتضاب ولم يعرف أنه دخل فى اسلوبهم شيء من المحسنات البديعية التى يصح أن تكون من اختراعات العصور الاخري كالجناس والتورية وما أشبه ذلك

الاوزان والقوافى

والحق أن العرب نظموا الشعر على تلك الاوزان الغنائية أو التى كان استحداثها فى الأصل لايجاد مادة غزيرة من المقاطع يعتمد عليها الساجع فى تطريبه وما كان امرؤ القيس حين قال « قفانبك » يعلم أن الخليل بن احمد الفراهيدى سيقطعها على قوله « فعولن مفاعيلن » وإنما وقعوا على هذه الابحر الشعرية من طريق الفطرة وطول المعاناة ، ونظموا فى بعضها أكثر من بعض وأكثروا فى قوافيهم من بعض حروف الهجاء دون بعض كما يتبين ذلك من النظر فى أشعارهم وقوافيهم.

« خاتمة »

ويحسن أن نختم هذا القسم من الكتاب بعودة قصيرة إلى ما أسلفناه من الرأى فى سبق النثر على الشعر فى الميلاد فنقول مرة أخرى أن كلا من الادبين يفيض عن الطبع ويتصل بعواطف النفوس وهما يقاسمان بقية الفنون الجميلة وظائفها الطبيعية من نقل صور الأشياء وتمثيل صفاتها وخصائصها وألوانها فى جمالها ودمامتها من غير تشويه ولا مجاملة بزيادة أو نقص وإن الادب المطبوع بلطف تأليفه وسلامة أقسامه يريك من الحروف والكلمات تماثيل الاشياء وصور الكائنات ويتجاوز ذلك إلى تحصيل المعاني الوجدانية التى قلما تنالها تهاويل النقش ولا اصباغ التصوير ، وكان الادب من هذه الناحية أرقى طبقات الفنون وأكرمها أثرا فى النفوس وهو بلا ريب نتيجة الهبة الفطرية المتصلة بمشاعر النفس وقوة الخيال لا يختلف فيه الشاعر والكاتب إلا بأن يكون فى أحدهما كلاما موزونا وفى الآخر طليقا مرسلا يتغذان كلاهما عن الخيال ويصدران عن الطبع ولا يحرمان جميعا من عمل العقل الذى يتمثل فى الموازنة المفضية الى خلوص صفحة الادب من بعض مايكون فيها من الهجنة أو خطأ الفكرة . ولو صح أن تكون قوة العقل مصدرا لاحد الادبين لكان أولئك الرياضيون وعلماء الفلك والمتبحرون فى علوم الطبيعة والمنطق والفلسفة كتابا أو شعراء والامر ليس كذلك بل التجربة الواقعة تدل على أن الذين تنضج عندهم قوة التفكير يضعف فيهم التخيل وتخمل الحافظة والذين يسمو خيالهم يقصر مداهم فى التفكير ويقل تعمقهم فى البحث . وكذلك قوى النفوس لا تستوى فى أحد إلى درجة من الرقى واحدة إلا أن يكون من أفذاذ الخلقة الخارقة للعادة

وانك لترى أكثر ما يغلب على الاديب أن يكون هادىء الفكر نفوراً من الاستقصاء قليل الامعان فى استخراج المعاني من مظانها البعيدة المجهدة إذ كانت وظيفته الاسفار عن محاسن الوجود وتمثيل ما يتصل بالاجتماع من ألوان الاخلاق والعادات وتوجيه الرسالة دائماً إلى العاطفة النافرة من سماجة الفلسفة وثقل التكاليف العلمية والمباحث العميقة وحسبه أن يصف السماء والارض وما بينهما من غير أن يقول أن هذا الاديم الصافى المحيط بالافق وهم لا وجود له ناشىء من خطأ النظر وإنما هو طبقات الهواء المتكاثف ولا أن يتناول شيئاً من نبات أو حيوان فيذكر فصائله ويعلل لقاحه كما يفعل علماء النبات والحيوان وذلك الذى جعل النقاد من أهل الادب يعتبرون أمثال أبي تمام وأبي الطيب والمعرى حكماء وانما الشاعر البحترى

ومن جهة اتصال الادب بالحياة البشرية صح اعتباره كذلك موجوداً حيا يحتم أن يتعرض وجوده لادوار النشوء والارتقاء وأن تكون له طفولة تاريخية شأن جميع الموجودات الحية لم يكن يزيد فيها على أن يكون جملة أو جملتين يتصلان ببعض الشعور ويحملان بعض ما فى الوجود من الجمال

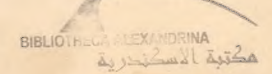
وحينئذ كان الادب كله كلاما منثوراً مضى فى هذه النشأة دهراً لم يتميز فيه أحد قسيميه عن صاحبه ، حتى أصغى الانسان الى تلك الطبيعة الراقصة المغنية بضروب من الايقاع والنغم على مضاربها وأوتارها المختلفة

وما لبث أن اختمر الطرب فى نفسه فارسله على نبرات صوته كهتاف الحمائم وبغام الظباء وتناوح الرياح ثم أنف أن يكون يضاهىء الحيوان الاعجم فعمد إلى تصيير تلك السذاجة الصوتية كلاما مفهوماً موقعاً على تلك المسافات المتساوية من نقرات الحوافر ودقات الاخفاف فنشأ الوزن وتولدت الاقسام فى الكلام وهى طفولة الشعر المتمثلة فى صور النقر القصيرة من الاسجاع الموزونة والفواصل المتساوية وكان السجع بالطبع كالفصل لذلك الوليد الناهض حتى

تحرك وأخذت تتمدد به أوزانه الواسعة وأعاريضه المختلفة وامتاز حينئذ عن سائر الكلام المنثور على الاقل بالوزن الذى لا يخلو منه فى لغة من لغات الناس وإذاً كانت نشأة الاوزان متأخرة فى الظهور عن الارسال والبسط للكلام وكان الشعر بهذا الاعتبار متولدا من النثر ومتأخرا عنه فى الوجود ولا يقال إنه كان فى ذلك الوقت شعرا فنيا يقابل كلاما مبتذلا لما يترتب على ذلك من أنه يكون ولد مخلقا كاملا مناقضا لسنة الوجود فى جميع الاشياء وهو كما ترون كلام ظاهر الفساد والبطلان

ومن هنا يتبين خطأ التقليد وسوء النقل من المتتبعين لآراء الافرنج وهم ينسبونها كذبا مع هذا لاختراعهم واحتيال عقولهم فى درس نظريتهم القائلة بظهور الشعر فى الآداب القديمة قبل النثر لان ذلك على ما يظهر محمول على أنه كان قليلا طريفا أمكنت العناية من الاحاطة به ومن تدوينه وخفت المؤونة على الناس فى تحمله وروايته وهو شأنه فى كل أدواره التاريخية قلما يساويه النثر فى حظه من هذه العناية . وأنت تجد لكل شاعر ديوانا يتناوله العلماء بالتأويل والشرح حتى المتشاعرين من أدعياء زماننا ولا تجد لا بلغ الكتاب إلا متفرقات فى بطون الكتب لا تعد شيئا بجانب ما ضاع من آثارهم وثمرات قرائحهم وهذا جرير والفرزدق والاخطل ولكل منهم ديوان حافل قد زها زمانهم بجهابذة البيان المنثور كزياد والحجاج وعبدالملك وابن صفوان واضرابهم وليس بأيدى الناس من بلاغاتهم على سعة شهرتهم وامتداد حياتهم سوى هذه الخطب القليلة وبعض النتف المقتضبة من رسائلهم وأحاديثهم ويمضى بك التنقير فى عصور الادب فلا تجد حظ النثر من التدوين إلا على هذا النمط الذى بيناه لك حتى فى أجمع الكتب لاشتات هذا الادب من أمثال الاغاني وأشباهه

ولعلك تقول فما بال هذه المؤلفات النافعة وتلك الكتب العلمية لاتكون دواوين لهذا النثر وما نحسب أن أحدا من الناس يقول ان مؤلفا فى النحو والاشتقاق ولا جامعا فى الاصول أو الفلسفة ولا كتابا فى الكيمياء والمنطق بل ولامحيطا من جوامع اللغة يصح أن يسمى نثرا أدبيا . وأنت تعرف أن لهذه العلوم والصناعات حدودا واصطلاحات تخضع لها الأقلام وترتبط بقوانينها اللغات إلى مايتصل بأبحاثها دائما من أثر الفكر المتعمق والمبالغة فى بحث بواطن الامور وعلل الأشياء ومايزال الأدب المنثور مستثقلا لهذه المؤونة كارها كما قدمنا لهذا الاستقصاء وانما يكون أدبا مطبوعا اذا كان سهلا ممتنعا صادرا عن شعور النفس ومتحللا من ذوب القلوب جمالا وبيانا للناس . ولا نقول بحرمان هذه اللغات التأليفية فى العلوم والصناعات المختلفة من آثار الادب فقد يفيض عليها قلم الكاتب توخيا لتقريب الاسلوب وتسهيل التناول بقدر مايسمح به المقام كما لا نقول بتجرد الأدب من المعاني الحكيمه والامثال المضروبة الناشئة من تجارب الحياة ووقائع المشاهدة مما يعرفه الناس سواء تجيء من عفو الخواطر غير مكدودة ولا متعملة فتكون كالثمرة اليانعة بين نواضر الزهر حين يستسلم الاديب لعواطفه الوطنية ويهيب بالجماعة الى ابتغاء المنزلة بالحكمة والموعظة الحسنة والله الموفق إلى الصواب ؟


Bibliotheca Alexandrina
04437584

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية